



بیست سختی السهجه

نجیب محفوظ

سید

بيت سي السمعة

مطبوع على بلتنة مصر

بيت سي السمعة

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للأدب ١٩٨٨

الناشر

مكتبة مصر

٢ شارع كامل صديقي - الفيحانة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

قبيل الرحيل

لم تبق إلا أيام معدودة قبيل الرحيل . لذلك بدت الإسكندرية لطيفة جذابة كما ينبغي لها قبيل الرحيل . وهو لا يدري متى يراها مرة أخرى إذ أنه يمضي عطلته عادة عند الأهل في الريف ولذلك فالذي كان موطننا للوحشة والملل انقلب مبعثا للحنان والأشواق في نظرة الوداع . حتى مجلسه المعتاد منذ أربع سنوات بقهوة سيدى جابر تجدد للتو شبابه . وقال لنفسه وهو يدخن النارجيلة هيات أن يجدها مناسبا لترطيب التبغ كجوا الإسكندرية ، أما النادل الذي جاء بالقهوة فقد قال بأسف :

— ستوحشنا كثيرا يا بيه ..

فابتسم إليه شاكرا ، وعند ذلك دخلت امرأة . هى .. هى . التى تتردد على القهوة من شهر لآخر ، التى أطلق عليها امرأة سيدى جابر ، التى تجاهلها طوال أربعة أعوام ، وكانت اختفت منذ أواخر الصيف . ها هى فى فستان شتوى ، مطوقة الوجه بإشارب وردى ، متلفعة بشال مرصع بالترتر ، ملابس توافق الخريف الزاحف وتلك السحب البيضاء التى أخفت قرص الشمس وطرحت لونها الهادئ الغامض على الشوارع شبه المقفرة . وجلست إلى جانب الرومى صاحب القهوة ، وتبادلا كالعادة قليلا من الكلام وكثيرا من الصمت ، يغشاهما جو حاد كأنهما رجلان ، ومن رجال الأعمال على الأرجح . وذاك شأنهما من زمان . ومرة همس النادل فى أذنه :

— أليست جميلة ؟ ..

رأى عينين واسعتين مقتحمتين ، ووجنتين رياتيتين ، وإغراء فى هالة من الثقة بالنفس والحنكة ، فقال وقتذاك دون تردد :

- ٦ -

— ليس الطراز الذى يوافقنى !..

اليوم تبدو مغربية فحسب كالإسكندرية قبيل الرحيل . وقال للنادل :

— أربعة أعوام عشتها فى الإسكندرية ومع ذلك فلم أزر — ولو مرة واحدة — لا حديقة الحيوان ولا أنطونيادس ولا الآثار الإغريقية الرومانية ولا هذه المرأة ..

فابتسم النادل قائلا :

— وأسيوط لن تجد فيها شيئا ..

وبعث إلى المرأة بنظرة بدائية ولم يكن فى القهوة إلا منهكمان فى النرد فأجابته بعمق . فقال للنادل :

— أرى شطارتك ..

انتقلت إلى جانبه ، ثم تبعها النادل بزجاجة بيرة . وراح يؤكد لها أن تعارفهما فرصة سعيدة حقا فقالت بدلال بارد :

— أنت كشجرة المانجو ؟

فرفع حاجبيه مستفهما فقالت :

— تحتاج إلى خدمة طويلة وصبر !

فهرب من الاعتذار برفع قدحه هامسا « صحتك » وقضما الزيتون الأخضر وهما يترامقان فى صمت حتى قال :

— البيت على بعد دقائق !

فقالت بلا تلعم :
— جنيهان !.. والآن من فضلك ..

ودستهما فى حقيبتها وهما يغادران القهوة . وأثنت على الشقة الصغيرة المهندمة فأثنى بدوره على البواب صاحب الفضل . وجاء بطبق فاكهة ووضعها على خوان على كئيب من الفراش . وسرعان ما تعانقا دون ما كلمة واحدة .

وامتلاً الصمت بتعابير غامضة وهمسات من عالم آخر . واستحكمت ظلام
المغيب في جو الحجر المعلق . وارتجت مصاريع النوافذ بريح مباغتة كما يقع
كثيراً في الخريف . وما ليث لحن المطر أن عزف فوق الجدران . ورفع إلى
النافذة القرية نظرة محمومة ثم همس مستسلماً :

— جو متقلب لا أمان له .

ولكنه استمتع بدفء وراحة عميقة . وانتبه إلى الظلمة الشديدة فمد يده
إلى الأباجورة فأضاء مصباحها . ولحن المطر ما زال يعزف ولكنه خف جداً
موحياً بالختام . ونظر إليها فرآها مغمضة العينين كالنائمة . وهاله منظر جفنها
الكبير كورقة وردة . ولاحت منه نظرة إلى المرآة البيضاء فرأى صورة
لشخصه تستحق الرثاء . وكف المطر عن العزف تماماً . وسألها :

— نائمة ؟

فأجابت دون أن تفتح عينيها :

— لا أنا قبل الفجر ...

وقشر موزة ورشقتها برفق بين شفثيها الغليظتين فجلست نصف جلسة
وتسليا معا بالفاكهة . وقالت :

— قال الخواجا إنك مسافر بعد غد ... ولكن ما اسمك ؟

وتذكر وهو يدارى ابتسامة أنهما بدءا بالعناق قبل التعارف . قال أن اسمه
بركات ، موظف منقول إلى أسيوط ، فقالت وهي تمسح ظاهر يدها بباطن
قشرة الموز :

— اسمي دنيا ..

فقال لنفسه : اسم غريب وجميل ولكنه بلا شك زائف ككل شيء في
الجلسة ، وشعر بالملل يسترده من الحلم حتى حسد المنهكين في القهوة .
وقصت عن الماضي والمصير قصة فقال لنفسه : « قصة واحدة .. لا جديد

— ٨ —

البتة ا . وسألته عن شقته وأثائها فأجاب :

— بعثها بكل ما فيها ... وبعد غد سيحل بها آخر ..

لم يعد بالحجرة إلا عبر الموز والفتور . ولولا الجنيمان لتقوض المجلس . وفي ذروة من ضيقه رآها وهي تمد ذراعها إلى حقيبتها فوق الكنبه ، ثم رآها وهي تستخرج منها الجنهين . لحظها بطرف متسائل فإذا بها تميل نحو الناحية الأخرى من الفراش لتودع الورقتين في درج التواليت . ونظرت إليه وهي تبتسم فتلقى نظرتها بعين لم تفهم شيئا ، وسألها :

— لمه ؟

فقالت وهي تسبل جفניה :

— نقودك ردت إليك ..

استيقظ من الفتور ولكنه لم يفهم شيئا فقالت بدلال :

— أنت فاهم ولكنك تتغاي ، هذا كل ما في الأمر ا

وأقسم لها أنه لا يتغاي أبدا فقالت :

— لا لزوم للنقود في هذه الحال ..

— أية حال ؟

فطوقت عنقه بذراعها السمراء وهو يضطرب من الانفعال وهمست في أذنه :

— الرضى !.. فهكذا أفعل إذا رضيت نفسى ..

وغرق في نشوة فرح لم يجربها من قبل حتى رقصت الجدران ولكنه هتف في

شيء من الحياء :

— لا .. لا ..

وكتمت احتجاجه بقبلة دسمة فذاب اعتراضه في فرحة أشمل حتى ودأن

ينعم كل شيء بالأفراح . واندفع يعد المكان لسهرة طويلة سعيدة فمضى إلى

الصالة ففتح الراديو ، ونادى البواب فأمره بإحضار شراب وشواء ، ثم رجع إلى الحجره وهو يقول :

— كم من مرة رأيتك فى القهوة طوال أربعة أعوام ١٢.. ولكننى أحمق ..
— والرحيل ١٢

فهب رأسه بأسف ثم تتمم :

— بعد غد ١٢.. من يصدق هذا ١٢.. ولكننى أحمق ..

واستلقى عند قدميها وهو يفرقع بأصابعه مع نغمة راقصة ردها الراديو .
واقنع بأن الدنيا تتمتع بصحة تحسد عليها . وخطرت له فكرة جديدة فوثب إلى الأرض وهو يتساءل :

— ما رأيك فى نزهة ليلية ١٢

ومضيا إلى ملهى صغير بشارع النبی دانيال . وتغلب بسهولة على حرص ماثور عنه فأنتق بسخاء ، وشربا كثيرا ، ورقصا مع كل نغمة . وفى فترة استراحة لاحظ أن شابا يرمى محبوبته باهتمام فتكدر صفوه وتوثب لمواجهة أى احتمال لا يروقه . وتقدم الشاب من دنيا وانحنى تحية ثم طلبها لرقصة مقبلة فنفخ بركات غاضبا حتى همست فى أذنه :

— هذا تقليد مألوف لا ضرر منه ..

فقال بغلظة :

— لا أحبه ..

ثم حدج الشاب بنظرة حمراء ، وقال له بخشونة :

— اذهب ..

ولم يدر بماذا أجاب الشاب ولكنهما التحما فى عراقك بسرعة مذهلة . ولم يشعر بما تلقى من ضربات ولكنه أصاب خصمه فى بطنه فترنخ وكاد يسقط على ظهره لولا أن تلقاه النادل بين يديه . وأحدقت بهما الأعين المخمورة فى

ذهول ووجوم . وتنقل مدير المحل بين الموائد مهدئا للخواطر ثم أشار إلى الأوركسترا فانطلق يعزف داعيا إلى رقصة جديدة . وجعل بركات يلهث ودينا تسوى له ربطة عنقه وقد المخلع زرار الجاكطة وتمتلك الجانب الأيسر من أعلى القميص ، أما اللكمة التي أصابت صدره فلم تكن بذات بال ، ورغم ذلك فلم يستأثر به الكدر أكثر من دقائق ، وسرعان ما عاوده الانسجام ، وراح يشرب كما يحلو له ، ورمقه البعض بحق فمالت دينا على أذنه قائلة :

— نذهب يا عزيزى ..

وغادرا الملهى وعشرات النظرات تصفعه بازدراء ، ولكنه شد على ذراعها بمرح وسعادة ، وداخله إحساس قوى بالزهو والفخر فقال لها :

— لا تغتمنى يا عزيزتى ، هذه متاعب يسيرة ، وكثيرا ما تحدث ..

واستقلا ترام الرمل مع الجمهور المنصرف من السينما . ومد ذراعيه حولها كالسياج ليدفع عنها غائلة الزحام ولكن رغم ذلك ضايقها رجل عن قصد أو عن غير قصد . ورماه بنظرة وعيد ولكن الآخر كان فى واد آخر فواصل مضايقاته . وانفجر فيه غاضبا من رأس دارت به الخمر . وتبادلا كلمات غاية فى القسوة ، ثم تبادلوا لطمات ولكمات بعنف قبل أن يفصل الناس بينهما . وتدخّل أولاد الحلال لمنع المضاعفات . ووجد فى وجنته اليسرى ألما ، وسال الدم من زاوية شفته السفلى ، وجعل يجفف الدم بمنديله طيلة الطريق ولكن الدم الغزير الذى خضب شارب خصمه عند أسفل أنفه الملتهب خفف من شدة انفعاله . وعند مغادرة الترام لفحه هواء منعش ثمل بعبير المطر فارتفعت روحه وقال :

— جرحى بسيط لكنه خسر أنفه فيما اعتقد ..

فتمتت فى ملق :

— كدت تقتله الله يجازيك ..

وندت عنه ضحكة ثم قص عليها نوادر من معاركه في الزمان الأول قبل أن
تشكمه الوظيفة . وكان يروى ذلك بفخار واضح ، ثم عاوده مرحة كأن شيئا
لم يكن ، وهكذا رجعا إلى حجرتهما . ووجد الشراب والشواء على الخوان
حيث تركهما البواب فقال :

— جميل جدا . ولكن ينقصنا الزهور ، كان يلزنا باقة ورد ويا للأسف !
وغسلت له جرحه ودلكت وجنته وهو يغنى « ما تبطل الشقاوة وتيجي
عندنا » وقالت له ضاحكة أن صوته لم يخلق للفناء فقال أن المهم هو السعادة
فعند ذلك يغنى أى شيء . ثم تحدث ببلاغة رقيقة عن الحب حتى قال لها :

— ليس كمثلته شيء ..

ثم قال أيضا بعد أن قبلها بامتنان :

— لا بد من الرجوع إلى الإسكندرية ، سنلتقى كثيرا بالرغم من
الرحيل ..

وعندما ساد الصمت ارتفع زئير الهواء خارج النافذة فقهقه بركات قائلا :

— جو بلادك قلب ولكنه جو سعيد !

وعندما اختفى كل شيء في الظلمة اشتد زئير الهواء ، وأكثر من مرة نضح
شيش النافذة بوميض البرق في موجات قصيرة متتابعة كاللدغدة كشفت عن
معالم الحجرة الكاسية والعارية ثم استكن الظلام كأكثف مما كان فتضاعف
حنان الشاب واستمتاعه بالدفع والأمان . ووجد نفسه يتذكر جو الساحل
عندما يكفهر وتنتشر في تضاعيفه تحركات غامضة متوترة تذر بوشيك المطر .
وما لبثت الأمطار أن انهلت فوق النافذة في عربة صاحبة فقال لنفسه وهو
يستزيد من متعة الأمان والهناء أن قيام الساعة نفسها يطيب في أحضان الحب .
واستيقظ عند الضحى .

وفتح النافذة فدخل هواء بارد وتراءت السماء ملبدة بغيوم في لون المغيب

جامدة غير موحية .

وجلست هي على الكنبه في تراخ مشعثة الشعر متفخه العينين فاترة النظرة
شبه عابسة كأنها لم تعرف اللعب . وخيل إليه أنها كبرت أعواما فسرعان ما
شعر بالكبر وبأن كل شيء زائل . وتشاءب طويلا بصوت كالأنين ثم قالت وكان
أول ما نطقت به منذ استيقاظها :

— هذا أوان الذهب .

فتساءل :

— لم العجلة ؟

فتمتت :

— انتهت الليلة ، ولدى عمل ومواعيد !

ثم رأى حركة لم يكن يتوقعها . رآها تميل نحو التواليت ثم تفتح الدرج
وتسترد الجنبيين من مكانهما ثم تعيدهما إلى حقيبتها وقد تشاءبت مرة أخرى . ما
معنى هذا ؟ .. وسألها في حيرة :

— أنت في حاجة إلى نقود ؟

— كلا ، أخذت ما اتفقنا عليه فقط !

فتساءل في دهشة وكآبة :

— أى اتفاق يا عزيزتى ؟

— الاتفاق ، نسيت ؟

فضحك ضحكة بلهاء وقال :

— الظاهر أنك أنت التى تنسين !

ولم تعن بالرد فقال بجزع :

— شيء عجيب ، النقود لا تهمنى ، ولكنك قلت أمس .. أنسيت حقا !
وقال لنفسه إما أننى مجنون وإما أنها مجنونة . ثم قال عابسا :

— ١٣ —

— ما لك ؟ ماذا جرى ؟ خبريني من فضلك ؟

فابتسمت ابتسامة باردة وهي تتساءل :

— أتريد أن تأخذ دون أن تعطى ؟

— قلت إنك لا تأخذين عندما ترضين !

فرمقته بنظرة غريبة ثم قالت :

— أردت أن أهبك ليلة سعيدة ، هذا كل ما هنالك ..

فسألها بصوت متهدج :

— مجرد حيلة من الحيل !؟

— ولكنها أسعدتكم سعادة حقيقية ..

فقال وغضبه يتراكم كزوبعة في الأفق :

— كذبة حقيرة ..

— لا تزعل ، كانت السعادة حقيقية ، وأنا أستحق شركك !

رماها بنظرة قاسية لم تتر من وجهها إلا دمامة وحشية ، وأصغى في رجفة إلى

حديث نفسه النائرة التي تدعوه إلى خنقها حتى يتفجر دمها الأسود فنظرت

إليه بقلق وحذر فصاح بها :

— شيطانة حقيرة .

فلم تنزع بصرها منه متوثبة للدفاع عند أول حركة فصاح :

— وحيلة فاشلة ألا تدركين ذلك ؟ .. أود أن تدفعي حياتك ثمنها ..

فلم تنبس وازدادت حذرا فعاد يقول :

— وما فائدة ذلك يا مغفلة ؟ لن تستطيعي أن تكرريها مرتين .

اطمأنت الآن إلى أن موجة الجنون قد انحسرت عنه فيما بدا وأنه أخذ يسترد

شيئا من هدوئه الخائب وإن رانت عليه كآبة ثقيلة فقالت :

— ١٤ —

— لكنها حيلة لا بأس بها قبيل الرحيل ، أليس كذلك ؟

فقال بازدرء :

— قلت يا مغفلة أنك لن تستطعي أن تكرر بها مرتين ..

فتساءلت :

— ومن قال إننا سنلتقى مرة أخرى ؟!

حلم نصف الليل
لحم

أم عباس امرأة جميلة ، عرفت في الحى بجمالها ، ويتطلع إليها أصحاب الأذواق كما يتطلع أهل الخلاء إلى عين ماء . وهى إلى ذلك تمتلك عمارة قديمة من أربعة أدوار غير ثلاثة دكاكين أسفلها ولذلك اعتدها الأهالى وكلهم فقراء حلما موشى بالذهب . ويوم توفى زوجها بائع المسابح والمباسم والأوراد كانت فى حوالى الأربعين ، وهى سن يعتبرها الحى ذروة النضج ومجلى البضاضة وعطر الأنوثة . وكثيرون سعوا إلى التزوج منها ، ولكن القسمة دفعت بها إلى أحضان رجل لم يجر عند الظن على بال . كان حسنين يملك عربة كارو ويؤجرها إلى الغير ، فى الثلاثين من عمره ، قوى الجسم مرهوب الجانب ، ومعدودا من فنوات الدرجة الثالثة . ولم يكن أحد فى الحى يجبه أو يعجب به فازدادوا له مقنا ، وعجبوا كيف تقع امرأة كأم عباس فى أحاييله ، وقالوا بأسف والغضب والحسد يأكلان قلوبهم :

— مسكينة أم عباس ، ومسكين عباس !

وعباس ابنها من الزوج الراحل ، فى العشرين من عمره ، طيب القلب جدا ، تلوح فى عينيه الواسعتين نظرة صامته ، ولعلها ناطقة بلغة مجهولة ، يتسم كالأطفال ، ويطلق شاربه ولحيته ويحبهما . وهو أمى لم يحصل فى الكتاب حرفا ولذلك فتح له أبوه دكانا من دكاكين العمارة لبيع الحلوى والفول السودانى واللبن فكان يغدق على الأطفال بغير حساب . ولما تزوجت أمه من حسنين غاب عن الحى أياما ثم عاد وهو يقول لكل من يلقاه :

— لا يصح أن يحل محل الأب رجل آخر ...

ورفع رأسه نحو مسكن أمه وصاح بأعلى صوته :

— يا أم عباس ... الله يسامحك ...

وعندما ينقضى النهار يخلع جلبابه ويلبس بدلة زرقاء فاتحة اللون فهو يحب الألوان الفاتحة ، ويمشط بعناية شاربته ولحيته ، ويغطي رأسه بطربوش متداعى الأركان ، ويتناول عصاه الخيزران البرتقالية ، ثم يغلق الدكان وينطلق في سبيل طويل ، ملقيا بتحياته بمنة ويسرة ، يلوك في فيه قطعة من السكر النبات ويتسهم في سعادة رائحة ، وأكثر الليل يرى هائما على وجهه . ومد تزوجت أمه من حسنين اتخذ من دكانه مسكنا فلم تعارضه أمه طويلا لعلمها بعناده ، وكانت لا تخشى شيئا عليه وتقول إن ملائكة الله تحرسه . وسعى حسنين يوما إليه متوددا . ولكنه صاح في وجهه :

— اذهب ، أنا لا أعرفك .

فغضب الرجل قائلا :

— أنا عمك ..

وحال أناس بينهما وهم يلاطفون الرجل دفاعا عن الشاب المحبوب . وحزنت أم عباس حتى دمعت عيناها الجميلتان . كانت تحب عباس لأنه وحيدها ولأن وجهه صورة من وجهها . أجل كان عباس جميلا ، ولا يخفى جماله رغم اللحية والشارب والطربوش المتداعى الذى يغطي ثلث وجهه . ومن عجب أن حسنين ازداد بعد نعمة الزواج من أم عباس فظاظة وانحرافا . واستفحل جانب الفتوة من ذاته فاشترى الأعوان وأكثر من العدوان ، وكان يسكر حتى تلاطمه الجدران ، وكان يغنى إذا سكر بصوت تنفر منه الخنافس ، وكلما رأى عباس الرجل في حال من أحوال عربدته خرج من دكانه إلى الطريق ورفع رأسه نحو مسكن أمه وصاح بأعلى صوته :

— يا أم عباس ... الله يسامحك ...

ويوما ترامت جشرجة نبراته الصارخة من وراء الشيش إلى الطريق في هياج

(بيت سبى السمعة)

وحشى :

— أنا سيد البيت ... أنا سيد الكل ..

وتخيل الناس المرأة الجميلة تحت زوبعة الإهانات بأسف ، المرأة التي لم تعرف في ماضيها سوى الحب والتكريم . وتساءلوا عن سر ذلك الغضب . وأجاب سكان العمارة بأن الإيثار هو سر الغضب ، وأن الفتوة انتصر ، وأصبح المحصل الوحيد للإيجار . ولم تعد أم عباس تخرج كعادتها لزيارة الجارات والتجول في التريفة . لم يعد أحد يراها وهي تتبختر في الملاعة اللف كالمحمل وعيناها المكحولتان ترنوان بنظرة دسمة حول عروس البرقع . ولم يقنع حسنين باغتصاب دخل الأم فمضى يوما إلى دكان عباس وهنق

وهو يترغ من السكر حتى طير الأطفال عن ملعبهم :

— دنلى على مليم واحد ورثته عن أيك ؟

وتعلقت عينا عباس بالأطفال وكأنه لا يرى الرجل الآخر ، فأنذره هذا بسبابته صائحا :

— ادفع الإيجار أو فلتدخل الدكان ..

وسارع إليه بيومي اللبان ليهدى من نائزته ، وتودد إليه بمعسول الألفاظ حتى مضى به بعيدا وحسنيين يقول بلسان ملتو ونثار ريقه يرش وجه بيومي رشا :

— معتوه وبلطجى ..

وعند المساء انطلق عباس إلى جولته الليلية ، يجود حيثما ذهب ببسمات راققة وتخيمات حارة في سعادة ملائكية . ودبر حسنين حملة إرهابية جديدة ليحمل أم عباس على أن تبيع له العمارة بيعا صوريا . واشتد الخلاف بينهما فضجت الحارة بصراخه وتهديداته . وشكت المرأة إلى الجارات كرها . وتشاور بعض الطبيين في السعى لدى حسنين ليعدل عن مطالبه ولكن أحدا



... خرج من دكانه إلى الطريق ورفع رأسه نحو مسكن
أمه وصاح بأعلى صوته : يا أم عباس .. الله يسامحك ..

منهم لم يجروا على اتخاذ خطوة إيجابية خوفا من بطش الرجل وبخاصة أنه اعتدى في ذلك الوقت اعتداء وحشيا على رجل يدعى « كرملة » عندما ضبطه يوصل نقودا من أم عباس إلى ابنها . وارتفع نحيب المرأة ذات ليلة عقب تعنيف شديد من الرجل ثم علم أهل الحي أنه ضربها ضربا شديدا وأنها لن تطول مقاومتها . وعند الفجر تعالى صراخ فمزق السكون تمزيقا . واستيقظ الناس فزعين وفتحت النوافذ وهرع كثيرون إلى مصدر الصراخ ، إلى القبو . وعلى ضوء فانوس رأوا بيومي اللبان وهو واقف يرتجف . هو أول من يستيقظ في الحي ليسرح بصفيحة اللبن ولكن ماذا دهاه ؟ . ووجدوه يشير إلى مكان في الأرض فنظروا حيث يشير فرأوا حسنين سابحا في دمه وقد تكومت جثته أسفل جدار القبو .

واضطرب الحي اضطرابا عنيفة ، وسرعان ما احتلته الشرطة والنيابة ثم اندفع التحقيق في جميع الجهات متعقبا كافة الشبهات . استدعى كرملة وهو آخر ضحية للقتيل ، وأم عباس ، وبعض سكان العمارة ، وبيومي اللبان نفسه . وعشرات وعشرات من خصوم الرجل الذين لا يحصيهم عد ، ولكن ثبتت براءتهم جميعا بصورة قاطعة . حتى عباس استدعوه للتحقيق ، ولما سئل عن المكان الذي كان فيه وقت ارتكاب الجريمة أجاب ببساطة :

— كنت مع الخضر ...

ولما أراد المحقق أن يعرف من هو الخضر أجاب عباس بدهشة :

— ألا تعرف سيدنا الخضر !؟

ولكن كثيرين كانوا يعرفون تجوال عباس خطوة فخطوة وقد شهدوا نيابة عنه . وهكذا بدت الجريمة لغزا لا يريد أن يحل . وعرف من التحقيق أن حسنين قتل بالآلة حادة هشمت مؤخر رأسه . والحق أن أحدا لم يأسف عليه ، ولكنهم تساءلوا كثيرا عن القاتل ، وظلت الجريمة حكاية الحارة المثيرة زما

طويلا ..

وظن أول الأمر أن عباس سيرجع إلى مسكن أمه ولكنه رفض ذلك بإباء . واعتصرت المحنة الأم ففرقت في الحزن ولكن جماها قاوم المأساة وخرج منها في النهاية متألقا كإضيه . وعادت تتبخر بين السكة الجديدة والتريبة وعاد الإعجاب يحوطها كالهالة .

وإذا برجل يتقدم طالبا يدها . كان في الحقيقة شابا دون الثلاثين ، قصبابا أقرب ما يكون إلى الفقر ومن أهل الحى المجاور ، جميل الصورة ، دمت الأخلاق ، نظيف الدمة ، وتساءل الناس هل تجازف المرأة بقبول التجربة مرة أخرى ١٩ . وقبلته المرأة بأسرع مما تخيل أحد . ومع أن بعض الطبيين قالوا إن الله قد عوضها خيرا إلا أن كثيرين تهاوسوا متسائلين : ترى ألهذا الرجل علاقة بالجريمة الغامضة ١٩ . أما عباس فقال كعادته :

— لا يصح أن يحل محل الأب رجل آخر .

وخرج وسط الطريق ثم رفع رأسه إلى عش العروسين صائحا :

— يا أم عباس .. الله يسامحك !

وبلغ التهامس المريب مسامع الحكومة فأجرت تحرياتهما عن العريس — وكان يدعى عبده — واستدعى لسؤاله هو وأم عباس ولكن لم يثبت عليهما شيء وظل اللغز أخرس كما كان . وتجلت بالمعاشرة مزايا عبده القيمة فقد وهب المرأة حبا وعطفا ومعاملة كريمة . وعرض من بادئ الأمر صداقته على عباس ومع أن الشاب نهره قائلا :

— دعنى وشأنى ..

إلا أنه حباه بعطفه ورعايته وحث أمه على مده بما هو في حاجة إليه من نقود . وأثبت في الوقت نفسه أنه ذو عقل راجح فقد اقترح على أم عباس أن تبيع حوشا خلفيا للعمارة قائما على ناصيتين لتجدد العمارة بثمانه وتبنى دورا

جديدا . وأولته المرأة الثقة التي يستحقها فتجددت العمارة وارتفعت وازداد دخل أم عباس زيادة محسوسة حتى أعجب به الناس وقالوا رجل ولا كل الرجال . وقال بيومي اللبان لعباس وهذا يتناول عشاءه في دكانه قبل الانطلاق إلى جولته الليلية :

— أنت لك قلب ملاك فكيف تنفر من رجل طيب كعم عبده ؟

فمضى عباس في تناول الزبدي كأنه غير المقصود بالكلام فتساءل بيومي :

— ألا تحب من يحب الناس ويعمر الخرابات ؟

وأعاد عباس سلطانية الزبدي فارغة ثم نظر في عيني بيومي قائلا :

— الوحش .. ألم تره وهو يقطع اللحم في دكانه !؟

ووضح فيما تلا ذلك من زمن أن عبده بار كذلك بأهله فكان كلما خلت شقة في العمارة أسكنها أحد أقاربه . وكان يخفض الإيجار للفقراء منهم بإذن من زوجته . وفي ذلك كله لم يجد أحد ما يؤاخذه عليه حتى جاء بأمه وأختين له ليقمن معه في شقته فعند ذلك ردد البعض المثل القائل : « إن كان حبيبك غسل ما تلحسوش كله » . والحق أن أم عباس لم ترتح لذلك ، وهي قد فوجئت بالأمر الواقع مفاجأة لم تستطع معها منعه ولكنها أدركت أن الزمام قد أفلت من يديها وأنها لم تعد سيدة بيتها بحال بعد أن اضطلعت حماتها بالمسئولية فشعرت بالضياع .

وإذا به يوما يخلى دكانين من دكاكين العمارة الثلاثة ويهدم الجدار القائم بينهما ليقم دكانا كبيرا فخما ، ثم انتقل إليه من محله الصغير الحى المجاور ، وعلقت الخراف والعجول ، وصار أكبر قصاب فى الحى كله . وافتتح المحل الجديد بتلاوة من مرقئ حسن الصوت وحمد عبده الله بصوت سمعه الكثيرون على ما فتح به عليه من مال حلال !

ولأول مرة اختلف الناس فيه فمن قائل إنه مثال للأمانة والبر ، ومن قائل إنه

حسنين آخر حريرى الملمس . وشك أناس في ذمته وعض الحسد قلوب الكثيرين . وتغير عبده بعض الشيء فاختلفت نظراته الودية وحلت محلها نظرة جديدة مليئة بالثقة وطعم دماثة المألوفة بقدر من الحزم والعزم اقتضاهما مركزه المالى ومسئوليته كرجل أعمال . ولم يكتف باستعمال حزمه وعزمه في التجارة فاستعملها في البيت أيضا كلما نشب نزاع بين أم عباس وأهله ، واستعملها خاصة مع أم عباس . ولما كانت المرأة لم تعهده إلا لطيفا مؤانسا فقد كبر الأمر عليها وحزنت حزنا شديدا . وساءت الحال بينها وبين أهله ، وأصرت على استرداد ما ضاع من حقوقها في بيتها ، حتى قالت له يوما :

— أنا لا أريد أن يشاركنى أحد في بيتى .

وإذا بالرجل يقول لها بصوت رهيب :

— لك ما تشائين فتنضلى بالذهاب ..!

ولم تصدق المرأة أذنيها . ثم صاحت :

— هذا بيتى .. وعلى الآخرين أن يتركوه ..

ووقع اشتباك بالأيدى بين النساء فهاله أن يعتدى على أمه ، وانتهال على أم عباس ضربا ، ثم دفعها خارج البيت . وجدت نفسها وحيدة في الطريق حتى آوتها أسرة فقيرة تمت بقرى بعيدة إلى زوجها الأول . وهز الحادث النفوس هزا وهرع عباس إلى ما تحت مأواها الجديد وصاح بأعلى صوته :

— يا أم عباس .. الله يسامحك ..

ولم يدر الجيران ماذا يفعلون ، فلم يكن من اليسير إغضاب الرجل بعد أن كبر نفوذه وتعلقت به مصالح الكثيرين . وفكر البعض في رفع الخلاف إلى ساحة القضاء ولكنهم كانوا يتهامسون بذلك سرا خوفا على أنفسهم . ولم يجهر بالسخرية منه إلا عباس حتى غضب عليه الرجل فمنع عنه مصروفه وهو يقول بأعلى صوته :

— عبث السفهاء لا يجوز أن يمتد إلى المال ..
 والتفت إلى كثيرين من أهل الحى الذين وقفوا يشاهدون النزاع وقال لهم :
 — أى واحد منكم أحق بالنقود التى يعيب بها هذا الغلام المعتوه ..
 ولكنهم كانوا يرمقون الدكان والخراف والعجول ويتساءلون : وهذه
 الأموال ما شأنها !؟ أما عباس فلم يكثر لشيء وبدا كأنما يزداد سعادة
 وسيادة ، وكان ينطلق فى الليل كأنه وارث الملكوت . وقال الناس إن أم عباس
 امرأة تعيسة الحظ وأن قلبها الضعيف يدفعها دائما إلى المهالك . وبينما كانت
 تعيش بفضل إحسان أسرة فقيرة كان عبده يتضحخ ويشارك فى كل نشاط مالى
 فى الحى . وسعى بالصلح بينهما أناس طيبون حتى أعادوا المرأة إلى بيتها .
 ولكنها عادت منكسرة النفس لا أمل لها فى حياة كريمة ، ولم يسمح عبده بإعادة
 مصروف عباس إليه إلا بشرط أن يشاركه فى دكانه أحد أقربائه هو ليصون المال
 ويدير العمل . وأحب عبده الحياة المريحة المترفة فعقد اللاسه الشاهى الفاخرة
 فوق رأسه وتلفح بالعباءة من وبر الجمل ولبس المركوب الملون من خان الخليلي
 وتحلى بالخواتم الذهبية ، وسبقته رائحة المسك حيث ذهب فيقوم له الناس على
 الجانبين حتى يخفى عن الأعين فيتهامسوا :
 — الله يرحم أيام زمان !..

وعند الفجر تعالى صراخ فمزق السكون تمزيقا . واستيقظ الناس فزعين
 وفتحت النوافذ ، ثم هرع الجميع إلى القبور . رأوا ييومى اللبان وهو يرتجف
 فنظروا إلى حيث يشير فرأوا المعلم عبده مكوما ورأسه غائص فى بركة من
 الدم . وزلزل الحى زلزالا عنيفا . وأطبقت عليه الشرطة والنيابة والمخبرون .
 واستدعى إلى التحقيق عدد لا حصر له من أهل الحى ، ولكن لم يقع على أحدهم
 ظل شبهة من قريب أو بعيد ، وقطعت الدلائل بأن جريمة عبده ستلحق بجريمة
 حسنين . وقال أناس وهم يضربون كفا بكف :

— ٢٥ —

— ما أعجب هذا !..

فقال آخرون :

— انتظروا حتى يظهر العريس الجديد ..

ومضى عباس إلى دكان ييومى ليتناول عشاءه المعتاد قبل الانطلاق لجولته الليلية . وجعل ييومى يرمقه بغرابة وهو يأكل الزبادى بأناة وسعادة ، وشاربه ولحيته يلتقيان حول فيه ويبتعدان فى حركات متتابعة . وتردد ييومى قليلا ثم قال :

— عباس ! أنت أعجب شىء فى حارتنا ..

فابتسم عباس إليه بمودة إذ كان أحب الناس إلى قلبه ، فقال الآخر فيما يشبه الهمس :

— كان عبده ما زال حيا عندما عثرت عليه فى القبو ..

فتحسس عباس شاربه عند امتداده فوق فيه ليتأكد من جفافه ، فقال ييومى :

— وقد نطق باسم قاتله قبل أن تصعد روحه ..

فملاً عباس الملعقة بالزبادى ورفعها إلى فيه وهو يركز فيها عينيه ، فقال ييومى :

— وهو بلا شك قاتل حسنين من قبل ..

لاح فى وجه عباس عناء من يستحضر خيالا لا يرام ، فقال ييومى :

— وعند التحقيق نسيت كل شىء وتلك إرادة الله !

أتى عباس على آخر ما فى السلطانية وتأهب لمغادرة الدكان فتساءل ييومى :
— من أنت يا عباس !؟ .. وماذا يقول لك سيدنا الخضر كل ليلة !؟

فوتس قرخ

اجتمعت الأسرة على هيئة مجلس للشورى . ذلك تقليد جميل متبع من زمن بعيد بفضل حكمة الوالدين : حسن دهمان وهو من رجال التربية وعلم النفس والسيدة نظيرة وهي مفتشة كبيرة بوزارة الشؤون ، والغرض منه تربية لإشراك الأبناء في تحمل المسؤولية وتفهم الحياة فضلا عن أنه يجعل من العقل المحرك الأول لسلوكهم . وقالت الأم :

— نحن نجتمع لمناقشة مسألة « طاهر » ..

وطاهر هو الابن الأصغر ، في المرحلة الثانوية ، يحب ابنة زميل لآبيه تقاربه في السن ، ولما كانت أسرة الفتاة على وشك الانتقال إلى بلد عربي لعدة سنوات فقد أراد طاهر أن يخاطب البنت قبل السفر ، وقال سمير وهو أكبر الأبناء وطالب بكلية الهندسة :

— أعتقد أن الخطبة بالنسبة لطاهر سابقة لأوانها ..

وقالت هدى وهي طالبة بكلية الحقوق :

— طاهر متقلب في عواطفه ، رأيي التريث ..

والتفت حسن دهمان بوجهه الجاد نحو طاهر وقال :

— أود أن أسمع رأيك ؟..

وبوجه متجهم ، وهو يركز بصره في تهاويل السجادة تجنباً لالتقاء الأعين ،

قال طاهر :

— ما فائدة الكلام ما دام العقل سينتصر في النهاية ؟

وطال الأخذ والرد ، ثم أخذت الأصوات ، وانتصر العقل كما تنبأ طاهر ،

وقال الأب معلقاً على النتيجة الحكيمة :

— هذا هو عين العقل ..

هذه الجملة اكليشيه يحتم به الرجل مناقشاته وتقريراته المؤنفة . ومنها يقف طاهر موقفا غير ودى إذ أنه طالما عانى المتاعب باسم العقل . ولكن العقل يلعب دورا خطيرا فى حياة الأسرة كأنه معبود . بفضل توجهه ساد الأسرة نظام عجيب فهى ساعة دقيقة . البيت آية فى الترتيب والأناقة كأنه وجه ذو ملامح أبدية . سقوط عود كبريت أو تزحزح مقعد عن موضعه أو ارتفاع فى درجة صوت الراديو عن الحد المرسوم يعد من الحوادث المزعجة التى تتطلب علاجا سريعا . أوقات الطعام والاستيقاظ والنوم والعمل والراحة تخضع لدقة فلكية ، ويقول حسن دهمان عن ذلك كله :

— هذا هو عين العقل ..

ولكل فرد فى الأسرة دفتر توفير ، ونوع من الكتب يلائمه ، وحتى الأغاني والبرامج الإذاعية والتليفزيونية تتقرر بعد تشاور ونقاش ، ولدى مواجهة أى مسألة هامة ينعقد مجلس الأسرة ويدلى كل برأيه ، ويفحص هذا الرأى بكل عناية ودقة سواء تعلق بنوع الدراسة أم الحب أم الصداقة أم السياسة ، أجل لا يفلت من هذا النظام شىء ، ثم يقول حسن دهمان بكل ارتياح :

هذا هو عين العقل ..

وعقارب الساعة آيات فى الدقة إلا العقرب الصغير فهو مصدر قلق لوالديه .

— ألا تنجل من نفسك يا طاهر ؟

لكنه ينظر بغرابة إلى ما حوله . لا يريد أن يتحمس لشىء . ويحضر مجلس الأسرة وهو كاره . ويتحفظ للمعارضة بسبب وبلا سبب . نشاز فى أوركسترا العائلة . ويغالب ضحكة مريرة فى أحيان كثيرة . وبلغ به الاستهتار مرة أن اقتحم المطبخ وتناول غداءه قبل مواعده المحدد بنصف ساعة .

وقال له والده :

— ولكن هذا شذوذ لا مبرر له يا بنى ..؟

ولما لم يجد منه استجابة من أى نوع سأله .

— ألا زلت تفكر فى الخطبة ؟

فأجاب ببساطة .

— كلا . الجوع هذه المرة لا الحب ..!

ولما ذهب همست نظيرة هائم فى أذن زوجها :

— آخر العنقود يا عزيزى ..

فتساءل الرجل مغضبا :

— هل نرضى بالهزيمة ؟

— كلا ، ولكن الأمر يتطلب عناية مضاعفة ..

وآمن طاهر بأن « هذا هو عين العقل » تطارده حيث ذهب . إنها تطوقه فى الظاهر والباطن . إنه غريق فى نسيجها المحكم . حتى الحب والطرب والحزن . وسمع لجريان الدم فى أطرافه صوتا فأيقن أن شيئا سيحدث . وشاركه إحساسه من يعيشون حوله ولكن فى صمت متبادل . ويوما وهو فى الفراندا المطللة على الحديقة الصغيرة حدث شيء . كان موسم الامتحانات يقترب وسمير وهدى مكبان على المذاكرة . وكان الأب يكتب بحثا والأم تقرأ مجلة أمريكية . وبكى طاهر . كان فى الفراندا يذاكر . وشعر بأن الحمل فاق احتمالته وأن الدنيا لا شيء . وترك الكتاب فوق الترابيزة وراح ينظر فى لا شيء . وحزن حزنا عميقا . ثم انصهرت الكآبة فذابت دموعا . وكتب أول الأمر أن يسمعه أحد . ثم تدافعت الدموع بغزارة مذهلة فنشج ثم نحب . وغلبه ذلك فاستسلم للنحيب حتى هرع إليه الجميع . وقفوا مبهوتين . وجاءت أمه بماء فغسلت وجهه . وظل يبكى بحر كات بلا صوت وبلا دموع . وأسند رأسه إلى صدر



وقال له والده : ولكن هذا شذوذ لا مبرر له يا بني ؟..

أمه فتلقته بحنان وهي تتساءل بقلق ترى هل تجاوزت الحد « المعقول » في إظهار الحنان الذي يعتدل في صدرها ؟. ثم هدأ طاهر تماما فجلس واجما ولم يبق من الانفعال الغريب إلا نظرة حزينة بكل معاني الكلمة . وساد الصمت وارتسمت الأسئلة في الأعين القلقة . وسألته أمه :

— ما لك يا طاهر ؟

أجاب دون أن ينظر إلى أحد :

— لا شيء ..

ارتسمت الدهشة والاحتجاج مكان الأسئلة ، وقال له سمير :

— خبرنا بما يحزنك !..

وقالت هدى بحرارة :

— يجب أن نعزف ذلك ..

ولكن الأب أشار إليهما بالخروج فخرجا ثم سأله بركة :

— ماذا بك يا بني ؟

— قلت لا شيء .. !..

— أيام الامتحانات أيام مرهقة للأعصاب ..؟

— كلا .. كل شيء طيب ..

وغادر الأب الحجرة لينح الأم فرصة أطيّب ولكن طاهر لم يقل شيئا . ولم يكن يعرف أكثر مما قال ، ولذلك لم يستخلص أحد منه جديدا لا في تلك الليلة ولا في الأيام التالية . ونصحته والده بالتريّض في الشوارع المحيطة بمسكنهم ساعة كل يوم قبل أن يجلس للمذاكرة . واعتبر الحادث عرضا من أعراض الإرهاق العصبي . ولم يعد أحد يذكره ، ثم نسوه تماما .

ويوما قال حسن دهمان باهتمام :

— دعوت مديرنا الجديد إلى سهرة لطيفة في حديقة الصغيرة ..

وخاطبت الأم الأبناء قائلة :

— يجب أن نظهر بالمظهر اللائق وأن تمكثوا معنا قليلا ثم تنصرفوا
للمذاكرة ، وسيتوقف على لباقتكم نجاح الحفلة ..

وتساءل طاهر :

— أهو صديقك يا بابا ؟

فتفكر الرجل مليا ثم قال :

— الصداقة نعمة كبيرة وعلينا أن نستزيد منها كلما وسعنا ذلك ، والمدير
العام مجرد زميل أكبر ولكنه سيكون غدا صديقا ، والحياة الاجتماعية تطالبنا
بواجبات نافعة لا بد منها ..

وقال طاهر لنفسه : « هذا هو عين العقل » . وكان المدير الجديد قصيرا
بدينا ضخم الوجه والرأس أصلع ويتكلم ببطء شديد . وأنعم طاهر فيه النظر
وهو يقاوم رغبة شريرة في الضحك . وأعجبه منظر أمه وهدى وهما في كامل
زينتهما وتابع أحاديث أسرته الطفلية بدهشة : وسمع والده يستشهد بالشعر أكثر
من مرة وسمع أمه وهي تعلق على شكوى المدير من كثرة نسيانه قائلة :

— تلك آية العبقرية يا سعادة البيه ..

وانسحب سمر وهدى في الوقت المناسب ولكن طاهر لم يبرح مجلسه ،
ورغم إشارات أمه الخفية لم يبرح مجلسه ، ولما لاحظ أبوه تطلعه إلى المدير قال
له :

— آن لك أن تذهب يا طاهر ..

فتساءل طاهر :

— ألا أقول شعرا يا بابا ؟

وقطب الأب على حين سأله المدير :

— أنت شاعر ؟

(بيت سبي السمعة)

— كلا ولكنى أحفظ الشعر ..

— إذن أسمعنى لأعرف ذوقك ..

فقال طاهر بانتصار :

— علو فى الحياة وفى الممات ..

— شعر مشهور ..

— قيل لمناسبة شفق رجل ا

فضحك المدير قائلا :

— شعر جميل أما المناسبة فسيئة جدا !

عند ذاك ضحك طاهر . شعر بأن الحمل فاق احتمالاه وأن الدنيا لا شيء وراح ينظر فى لا شيء . وحزن حزنا عميقا . ثم انفجر ضاحكا . وبادره أبوه فأخذه من يده ومضى به خارجا . وعند نهاية السهرة ناقش الوالدان مشكلة طاهر طويلا فاتفق رأياهما على أنها بحاجة إلى علاج حقيقى ، ولكنهما رأيا أن الأوفق تأجيل ذلك إلى ما بعد الامتحان .

ويوما ارتفع صوت هدى فى البيت وهى تنادى فى شبه استغاثة صائحة « ماما .. تعالى انظرى ماذا فعل طاهر ! » . وهرع إلى حجرة الشاب كل من سمع النداء . رأوا الحجرة فى أغرب منظر . منظر لا يحظر على بال إنسان . حشية السرير قد طرحت فوق المكتب . والكتب والأوراق قد صفت فوق خشب السرير . والصوان انعكس وضعه فالتصق بابه بالجدار . وقلبت المقاعد على ظهورها . وطويت السجادة الصغيرة ثم علقت بدوابة بسلك المصباح الكهربائى . وندت عن الأم صرخة رثاء وهتف الأب :

— كارثة .. كارثة ورئى !

وسألوه جميعا عما فعل ؟ وكان يقف وسط الحجرة هادئا وباسما فلم يزد عن

أن تسأل بدوره :

- ولم لا ؟
— وصاحت الأم :
— أنت تمزق قلبي ..
— فقال برقة :
— آسف على إزعاجكم .
— فقال الأب بحسرة :
— غير معقول .. غير معقول ..
— لم لا يا بابا ؟! كنت أقوم بتجربة ، ولو أمهاتموني لكان ذلك عين العقل ...
— وغادر الخجرة إلى الفراندا ، وتبعه والده فوجده واقفا ينظر إلى السماء باهتمام بالغ . ونظر الرجل حيث ينظر فلم ير شيئا فازداد انقباضا ثم سأله برقة :
— أتعبت رقبتيك ، لم تنظر هكذا إلى السماء ؟
— وأهمله طاهر حتى كرر سؤاله مرتين ، ثم قال بضجر :
— إني أحسدها على ما تنعم به من حرية !
— فقال الأب محذرا :
— لكنها مستقر أدق نظام في الوجود ، النظام الذي لا يخطئ ..
— فانزعج طاهر وخفض عينيه غاصبا ..
— ألا تحب النظام يا طاهر ؟
— فقال بجدة :
— لا أحب لشيء أن يتكرر مرتين ..!
— لكنها الفوضى يا بني ..!
— فهتف الشاب :
— ما أجمل هذا !

وتشاور الوالدان فأجمعاً على وجوب البدء في العلاج دون إبطاء ولو ضاع العام الدراسي . واتفقا على أن يستشيراً طبيباً باطنياً أول الأمر ، على أن يذهباً بعد ذلك إلى طبيب أعصاب إن نصح الباطني بذلك ، ثم إلى طبيب نفساني إن لزم الحال .

وكان الوالدان في الحديقة يستقبلان بعض الضيوف ، وسمير وهدى يذاكران ، عندما سمع الجميع ضججة في الطريق وتدافع أقدام في الداخل وصراخ الخادمين .

وتبين أن النار مشتعلة في الطابق العلوى . وانطلقوا جميعاً إلى الطريق وأحد الخادمين يحمل طاهر بين يديه . وجاءت المطافئ فأخمدت النار قبل أن تستفحل . وقال طاهر في التحقيق ببساطة مذهلة :

— نعم ، أنا الذى سكبت البترول وأشعلت النيران ..

ولما سُئل عن السبب أجاب بالبساطة نفسها :

— لا أتذكر ..

ثم لاذ بالصمت .

وانطلقت سيارة المستشفى . جلس طاهر مقيد اليدين والقدمين بين والديه على حين جلس أمامهم مندوب المستشفى :

— كم رأينا من حالات أشد من هذه ثم عاد أصحابها كأعقل ما يكون .

وأراد الأب أن يقول : « إن ذهاب العقل كارثة لا تعادها كارثة » ولكنه

لم ينبس . وسأله نفسه : « ما معنى هذا .. وهل ثمة خطأ ؟ » كان بيته —

وما زال — معبدا للعقل وللنظام فكيف تسلسل إليه الفساد ؟ . وحز الألم في نفسه

حتى تتابعته تأوهات الباطنية وحتى حسد زوجته على سخاء عينيها فعرض على شفته .

— ٣٧ —

وتطوع المندوب للتخفيف من كآبة الجو فقال :
— المستشفى خير مكان له فلا نخزنا لذلك الإجراء الذى لا بد منه ..
ولم تكن لدى حسن دهمان رغبة فى الكلام ولكنه أراد أن يجامل الرجل بقدر
ما يستطيع فتمتم وهو من الحزن فى غاية :
— صدقت يا سيدى ، هذا هو عين العقل .

الصمت

ما أقطع هذه الحجرة . كميدان قتال . لا ترى العين في أى موضع منها إلا سلاحا يقشعر منه البدن . وهو لا يعرف إلا المقص ولكن المعرض حافل بما يشبه السكاكين والخناجر والدبابيس من كافة الأشكال والأحجام . وثمة أوعية ملوثة بالدم تحت الموائد المعدنية . وقطن وشاش ، ورائحة أثيرية نافذة كندير من عالم مجهول ، وثلاثة أطباء . الطيب المولد وطيب القلب وطيب التخدير ، وممرضة بدينة لكنها في خفة النحلة ولا تمسك عن الحركة . لم ير الأشياء إلا خطفا على حين تركزت عيناه فوق السرير المرتفع حيث ترقد زوجته مطحونة بالصراع ، مرفوعة الساقين فوق حاجز قائم في نهاية السرير وقف وراءه المولد في معطفه الأبيض ، لا يبدو منه إلا نصفه ، ويشي أعلى ذراعه بحركة يده المختفية . وراحت زوجته تقلب رأسها يمنا ويسرة كاشفة كل مرة عن عارض من وجهها المنقبض من الألم ، الذى استقرت في صفحته زرقة مغيرة . آه .. حتام يطول الصراع ؟ متى يجود بالراحة الرحمن ؟ . ويد الطيب لا تكف عن الحركة ، وهو ينظر نحوه أكثر الوقت ، في بساطة واستهانة وبيتسم ولا يتقطع عن الكلام ..

— ما أعظم الفارق بين صورتك الحقيقية وصورتك على الشاشة !
 هز رأسه وهو يتنزع من شفتيه الجافتين ابتسامة مجاملة ، واضطر في ذات الوقت أن ينزع عينه من الوجه المعبذب ليبادل الطيب نظرة على سبيل المجاملة أيضا .

— ما أبدع الفن ! وفن التمثيل هو سيد الفنون في نظرى ! إنك تضحككنى من أعماق قلبى ، لا أحد يضحككنى هكذا ولا الأمريكيون أنفسهم ، ودور

الباشكاتب في فيلمك الأخير دور عجيب حقا ، تفوقت فيه على نفسك !
لاحظت في عيني الطبيين الآخرين ابتسامة ، واسترقت الممرضة إليه نظرة
باسمة كذلك ، تحية لدور الباشكاتب . ونظر الأستاذ صقر نحو زوجته على أمل
أن يكون الحديث قد لطف من كربها ولكنه وجدها غارقة في دنياها الخفية
فسألت نفسه متى ينتهي عذابها ؟ ومتى يرحمها الطبيب فيتركه لنفسه ؟ . وإذا
بالطبيب يخاطبها قائلا :

— ساعديني ! يجب أن تساعديني كما قلت لك مرارا ، شدى حيلك
وأريني شطارتك !
وهمست بصوت هو الأنين :
— لا قوة لدى ..

— بل لديك قوة عظيمة ، ولن تتم الولادة إلا بمساعدتك ، افهمي ذلك
جيذا ، أنا في انتظار صوتك !

استجمعت قواها الخائرة ، تتابع الصراخ في قوة لا بأس بها ولكنه سرعان
ما وهن فتقهقر إلى أنين مبحوح . وزادت يد الطبيب حركة . وعاد يقول :
— والفيلم في جملته ممتاز أيضا ، قرأت مرة في مجلة أنك تشترط قبل التعاقد
على دور أن تطلع على السيناريو ..؟

انتزع عينيه من زوجته مرة أخرى وقال :
— نعم ..

— لكن ما معنى السيناريو ؟
يا للعذاب !

* * *

— هو إعداد القصة للسينما ..
— أنا أفرك على موقفك ، يجب أن تقرأ السيناريو أولا حتى تضمن لموهبتك

فيلما يناسبها ..

— شكرا .. شكرا ..

وتأوهت المرأة تأوهات متقطعة فقال الطبيب معاتباً :

— لا .. لا .. ليس هذا ما أريد ، الست هي التي تولد نفسها !

ومال الأستاذ صقر فوق أذنها هامساً :

— شيئا من التعب يا عزيزتي كي يجيء ربنا بالفرج !

فقال الدكتور ضاحكاً :

— أطيعي كلام هذا الرجل المستول .. (ثم ملتفتاً نحوه) لم أعرف أنها

كانت زميلة لك في المسرح إلا عن طريق إحدى المجلات أما أنا فلم أرك في

المسرح ولم أرها كذلك لأنني لست من رواد المسرح ..

ثم بعد هنيهة صمت :

— أنت لست معي !

فانتبه صقر قائلاً وقد تكاثف عذابه :

— معك يا دكتور !

— خبرني ما أحب أدوارك إليك ؟

رباه إنها لا تجد قوة للطلق ، ولكن ينبغي أن يكون الخطر بعيداً

وإلا ما استرسل الدكتور الذي لا يرحم في استجوابه :

— ماذا قلت ! أحب الأدوار إليك !

— لعله دور العسكرى !

— تعنى فيلم حريقة بلا نار ؟ .. لا .. لا ..

وانفجر صراخ من الأعماق ، تصاعد حاراً مليئاً كأنما يقذف بفتات

الصدر والحلق . واستحثها الطبيب على المزيد وهو يتركز في حركة يده

الآخذة في السرعة . وأعقب ذلك تأوه عريض مرتفع مالبث أن هبط إلى درجة



... ونظر الأستاذ صقر نحو وجه زوجته على أمل أن يكون الحديث قد لطف
من كربها ولكنه وجدها غارقة في دنياها الحقيقية ..

الأين ثم انداح فى الصمت ونقل صقر بصره من الوجه الأزرق المغبر إلى الساقين إلى وجه الطبيب وتساءل ترى أهو الختام المريح ١٢. واقتررب طبيب القلب فجنس النبض أما المولد فتراجع خطوة ثم خلع معطفه والقفاز ودار حول السرير حتى وقف أمامه باسمه . همس صقر :

— الحمد لله ؟

— الحمد لله دائما .. تعال ..

ومضى إلى حجرة داخلية فتبعه ، وهناك قال الطبيب :
— ضاعت الجولة هباء ، ولن يعاودها الطلق قبل أربع ساعات على الأقل ..
ثم وهو يهز رأسه :

— وإذا لم تيسر الولادة بحال طبيعية فلا بد من جراحة ..

— جراحة !

— لم لا ؟ القلب سليم ، وليس بها أمراض ، ألم أنصحك آخر مرة بتجنب الحمل ١٢.

بهت صقر . ومضى إلى الصالون فجلس بين أعضاء الأسرة التى تلقت الخبر بانزعاج حقيقى . وذهبوا إلى حجرة الزوجة فوجدوها تغط فى نوم عميق فعادوا إلى مجلسهم . وضاق صقر بالجلسة وشعر بحاجة ملحة إلى الحركة . استقل سيارته الدودج إلى قهوة الشمس ، قهوة الزملاء ، وإن لم يأمل فى العثور على أحدهم فى تلك الساعة من الصباح . وعند مدخل القهوة ناداه صوت قوى فمضى إلى صاحبه وجلس إلى جانبه فى الممر المكشوف تحت سماء مجللة بسحب الخريف . تربع جميل الزيدى فى مجلسه تحوطه هالة من الفخامة مصدرها بدائنه المتناسقة ، وهو زميل قديم لصقر من عهد المدرسة الابتدائية ، أما اليوم فهو من الأعيان وعشاق المسرح . وكان صقر فى حاجة حقيقية إلى المشاركة الوجدانية فقال :

— ٤٥ —

- اطلب لى فنجال قهوة فاى فى حالة إغماء ا
فطلب له القهوة وهو يتساءل :
— ما لك كفى الله الشر ؟
وأعاد على سمعه ما قال الطبيب فلم يبد عليه أنه اهتز أقل اهتزاز لكلمة
« الجراحة » وقال ببساطة :
— سليمة بإذن الله ، والنساء يلدن من عهد حواء فلا تخف ..
— المسكينة تتألم بدرجة فظيعة ، ويقولون إن الجراحة خطيرة ..
فتناول الرجل شوية فول سودانى من طبق فنجال ممتلئ وهو يدعو إلى
مشاركته ثم قال :
— إشاعات يروجها الأطباء ليبرروا مطالبهم ، المطالب هى الخطيرة
حقا ...
وضحك لذكرى وردت للمناسبة وقال قبل أن يفتح صقر فاه :
— عند مولد ابنى إسماعيل أتعلم ماذا حدث ؟
حنق صقر على مولد إسماعيل الذى اقتحم عليه عذابه وأجل عزاءه المأمول
لوقت لا يعرف مداه !
— ولدته أمه فى ثمانى عشرة ساعة ! جاءها الطلق الساعة السادسة صباحا
وأدركها الفرج عند منتصف الليل ! أى عذاب تتخيله ؟ ومع ذلك كله فقد
ولدت فى البيت وبوساطة حكيمة لا دكتور ولا دياولو !
فهز صقر رأسه كأنما يتذوق عبرة حقيقية ، ثم تساءل :
— لكن ماذا تعرف عن جراحة الولادة ؟
— تهويش أطباء ، هذا مدى علمى ، هل عندها ضغط أو زلال أو سكر ؟
— كلا ..
— إذن فهى لا شىء ، وقد قالوا لنا عند مولد ابنتى عزيزة أنه لا بد من

جراحة ! لماذا ؟ الحكاية أن الولادة طالت أكثر من المتوقع فاستعانت الحكيمة
بدكتور فنصح بنقلها إلى المستشفى لإجراء جراحة عاجلة ، وقبل أن يتعد مترًا
عن بيتنا جاء الفرج !

تابعه بنظرة مغيظة وهو يطحن الفول السوداني بتلذذ عجيب ، وإذا به
يقول مسترسلا في ذكرياته :

— الولادة العسيرة حقا كانت ولادة سوسن ابنة أختي !
نظر صقر إلى الأرض ليخفي كربه فواصل الآخر حديثه :
— كانت ضعيفة القلب ، وأجمعوا على إجراء جراحة ، واستكتبوا زوجها
إقرارا بالموافقة ، وشقوا بطن البنت ..

— شقوا البطن !؟

فضحك جميل قائلًا :

— هي الآن بفضل الله كمفتشات الرياضة البدنية !.
وخيل إليه أنه سيدخل في حديث ولادة أخرى فقام إلى التليفون وسأل عن
الحال فجاءه الجواب بأنها نائمة في هدوء تام . وعاد إلى مجلسه كارها فقال له
جميل :

— يجب أن تعود إلى المسرح ، أنا لا أحب السينما ، وإن شئت فاعمل في
الاثنين ولكن لا تنقطع للسينما !

فتمتم بفتور :

— أنا هجرت المسرح منذ أكثر من عشرين سنة !
— ولو ! هذا رأى الأستاذ سمير عبد العليم أيضا ، وعلى فكرة قابلته قبل
مجيئى إلى القهوة مباشرة وكان يسأل عنك ، والظاهر أنه اتصل بك في المنزل
حينما كنت في المستشفى ..

— ماذا يريد ؟.. ألم يقل لك ؟

— أبدا ، مطالبه لا تنتهى كما تعلم ولكنه ظريف وابن حلال ..
استقل سيارته إلى مجلة « كلام الناس » حيث وجد صديقه الناقد سمير
عبد العليم يكاد أن يَخْتَفِى وراء الأوراق المكدسة فوق مكتبه . تعانقا وسمير
يقول :

— بحثت عنك فى كل مكان ، أين كنت ؟
فجلس وهو يقول مرحبا بالفرصة التى واتته لإعلان أحزانه :
— كنت فى المستشفى ، راضية فى حالة ولادة ا
هنأه بصوت خطائى وهو ينكب على الأوراق باحثا عن شىء هام فيما بدا ،
فقال صقر :

— ولادة خطيرة يخشى ألا تتم إلا بجراحة ا
والظاهر أن سمير لم يسمعه لشدة انهماكه فى البحث غير أنه قال بمرح :
— نحن نطالب بولى عهد للمسرح الكوميدي ا
فرفع صقر صوته قائلا :
— ولادة خطيرة يخشى ألا تتم يلا بجراحة ا
انتبه سمير إليه وقد كف عن البحث لحظة فأعاد صقر على مسمعه أقوال
الطبيب فقال الناقد :

— ربنا يكتب لها السلامة ، الطب تقدم وانقضى عهد الجراحات
الخطيرة ...

ثم انهمك فى البحث مرة أخرى وهو يقول :
— أنا نفسى جئت إلى هذه الدنيا بجراحة ، وفى زمان كان الطب فيه
كالطب عند قدماء المصريين ، يا سلام على الفنانين وأعصابهم المرهفة .
وندت عنه آهة ارتياح لعثوره على الأوراق التى كان يجرد فى البحث عنها ،
وأخذ يرتبها بعناية وهو يقول بنبرة جديدة دلت على أنه نسى الحديث الأول

تماما :

— اتفقت مع صوت العرب على برنامج جديد أسبوعى باسم « أهل الفن »
واخترت أن أبدأ بك ..

— لكن يقولون إن جراحة الولادة خطيرة يا سمير ؟
— لا شيء خطير ألبتة ، وستضحك غدا من قلقك هذا بملء فيك ، المهم
أن هذا البرنامج يقتضى تسجيل مناظر من مسرحياتك القديمة ، الأفلام أمرها
سهل ويمكن تسجيلها في أى وقت أو طبع نسخ جديدة من الفصول التى يتفق
عليها ، ولكن المسرحيات كيف نسجلها ، كيف نجتمع الممثلين القدامى ؟
ومن يحل محل الذى مات منهم ؟ .. هذه المشكلات ومثيلاتها تشغلنى طيلة
الوقت ..

أوشك أن يغضب ولكنه استسخف نفسه فانزوى فى وحدة حالكة .
ما رأيك فى هذا النظام ؟ سأبدأ بمقدمة عنك ألقيا بنفسى ، يعقب ذلك
حوار بينى وبينك أنا أسأل وأنت تجيب ، يتخلل ذلك مناظر من المسرحيات
ومواقف من الأفلام ، ثم جلسة عائلية فى بيتك ، ولكن آه .. راضية ستكون
متوعكة ربنا يشفيها ١٩

— آمين ، ماذا تعرف عن جراحة الولادة ؟
— كل خير ، لا تصدق الأطباء ، الصعوبة الحقيقية فى تسجيل المسرحيات
القديمة ، اتصلت بكثيرين من الممثلين ولكن هل لديك أصول المسرحيات ١٩
ولما لم ينيس قال سمير :

— أنت لست معى ا
— معك ، عندى الأصول ، عن إذنك التليفون ..
وكرر السؤال عنها فتلقى نفس الجواب ، وأعاد السماعه مغمغا
« يارب » . وقال سمير :

— ٤٩ —

— تعال لمقابلتي في الإذاعة مساء الأحد ..

— ربنا يظمئني أولا ..

— إن شاء الله ، لا تكن خوفا هكذا ، ألا ترى أنك تذكرني بدور

الباشكاتب الذي تفوقت فيه على نفسك !

عاد إلى قهوة الشمس فوجد أن مجلس الزملاء قد انعقد كشأنه ظهر كل يوم . وصمم على ألا يعلن شكواه لأحد فجاراهم في أحاديثهم بقلب غائب واشترك أحيانا في قهقهاتهم التي ترج القهوة في تلك الساعة من النهار . وعند الواحدة قاموا ليتناولوا الغداء في المقطم ، دعوه للذهاب معهم فاعتذر فمضوا إلا واحدا هو حيدر الدرمللي ، وهو زميل قديم عمل في مسرحه ملقنا ويشغل اليوم مدير إنتاج في شركة سينمائية . ولم يدر بالسبب الذي جعل حيدر يتخلف عنهم حتى قال هذا بقلبي :

— ظهرت نتيجة تحليل الدم وهي ليست على ما يرام .

تذكر أنه شكأ إليه مرضا ألم به منذ عشرين يوما في أحد الاستديوهات فقال

له معذرا :

— آه نسيت أن أسأل عن صحتك بسبب زياط إخواننا وتهربهم ، آسف

يا حيدر ، أنا شخصيا في كرب عظيم !

واضطر حيدر إلى تأجيل الكلام عن تحليل الدم إلى حين وسأله :

— لِمَ والعياذ بالله ؟

فحدثه عن حال زوجته حتى قال حيدر :

— أسأل الله لها السلامة ، ولعل الولادة تتم دون جراحة ، ولكن خبرني

ماذا تعلم عن زيادة كريات الدم البيضاء ؟

— لا أدري ، وعلى أي حال فالطب تقدم جدا ، فوق ما تصور ،

ولكن .. ولكن أنا المسئول !

(بيت سيء السمعة)

— أنت ١٩

— نعم ، كان يجب أن أحتاط فلا أسمح بالحمل مهما تكن الظروف ..
هز حيدر رأسه في امتعاض وهو يتكلف الاهتمام بكلام الآخر تكلفا ولكنه
لم ينبس بكلمة فقال صقر :

— ولما وقع المحذور كان على أن أجهضها بأى ثمن ، وهاك نتيجة الإهمال ..
فتبسم حيدر وهو يجول في المكان بنظرة ذاهلة :

— دنيا ! يعنى أنا كان ما لى ومال الكريات البيضاء !

— على رأيك ! وهل تدرى ماذا تعنى جراحة الولادة ؟ شق البطن !

— ربنا لطيف بالعباد ، وهل تدرى أنت أن مرضى يجهمه أطباؤنا ويقفون
حياه حيارى ؟

— لا تتشام ، ربنا لطيف بالعباد كما تقول ، وإلا فمن لأم تتعذب هذا

العذاب وهى تهب الدنيا مولودا جديدا ١٩

وأجهدهما الكلام فيما بدا فلاذا بالصمت ، واندفن كل فى ذاته فاجتر
أحزانه وحده . ونظر صقر فى الساعة ثم طلب القهوة الرابعة مذ غادر
المستشفى وأشعل السيجارة العاشرة وتساءل عما يجتبه له اليوم ! . وتجنب
صاحبه كما تجنبه صاحبه فقام بينهما سد . وقال صقر وكأثما يخاطب نفسه :

— إنى أعجب كيف أنى أكرس حياتى لإضحاك الآخرين !

فتساءل حيدر بنيرة باردة :

— ألا يدفون ثمن ذلك بسخاء ؟

ولم يناقشه رغم ما بدا له من إمكان ذلك . وعاد ينظر فى الساعة ويتساءل
عما يجتبه له اليوم .

وأغمض عينيه فشعر بشيء من الراحة ولكن ضوء الطريق ضايقته كما
لم تضايقه من قبل فود لو يفرق كل شيء فى الصمت ..

بيت سي السمعة

كان منهمكا في عمله عندما استأذنت سيدة في مقابلته ، وجلست وهي تقول :

— صباح الخير يا أستاذ أحمد ..

سيدة واضحة الكهولة ، مقعرة الخدين من ذبول ، بارزة الفم ، تعكس عينها نظرة متعبة ، وتضفي عليها ملابس الحداد تجمها وكآبة . وسرعان ما أدرك من مطلع حديثها أنها قصدته بأمل أن يسهل لها الإجراءات الخاصة بمعاشها : وهمّ بتحويلها إلى مدير المعاشات مشفوعة بتوصية غير أن لمحة في نظرة عينها المتعبتين استرعت انتباهه . نحيل إليه أنها ترمقه بنظرة خاصة تراوح بين الارتباك والتجمل . ما سر ذلك يا ترى ؟ هل تعرفه ؟ . وفي الحال ومضت في ذاكرته ومضة أضاءت غياهب الماضي فهتف في ذهول :

— حضرتك ..؟

قالت وهي تغض بصرها في حياء وتأثر :

— نعم ، ومن حسن الحظ أني عرفت أن حضرتك مراقب عام

المستخدمين !

ولم يكن تذكر اسمها ، ولكن وثب إلى ذهنه اسم التديل الذي عرفت به : « ميمي » . إن منظرها أكبر من عمرها . وعمرها لا يمكن أن يجاوز الخمسين . ولعله من الذوق أن يختلق سببا لعدم معرفتها بالسرعة التي لا شك — توقعها . قال :

— كنت مشغولا جدا فنظرت إليك بعينين غائبتين فلم أعرفك ..

فابتسمت عن طاقم نصيد وقالت :

— أنا تغيرت أيضا ، الضغط ربنا يكفيك شره ، والحياة أنهكت أعصابى ،
لى بتتان متزوجتان ، وثالثة فى بعثة ، وعندما وصلنا لى بر الأمان توفى المرحوم
زوجى ..

وتبادلا السؤال عن الأسرتين فتردد ذكر من تزوج ومن مات ومن يقيم فى
القاهرة ومن انتقل إلى الأقاليم ، وكان فى أثناء ذلك يحاول أن يستحضر صورة
ميمى القديمة بصعوبة لا تكاد تقهر فاحتج مرات على قسوة العيش . وأخيرا
كتب لها توصية إلى مدير المعاشات وانتهت المقابلة .

عاد لى مجلسه — بعد أن أوصلها إلى الباب — وهو يعيش فى حلم . ويبحث
فى ضباب الحلم عن عام . أى عام يا ترى ؟ . ١٩٢٥ . عام ملى بالأحداث
التاريخية ولكن ميمى كانت أهم من تلك الأحداث جميعا ، ميمى وبيتها
العجيب ، ومنشية البكرى القديمة الراقدة فى صحراء البنديرة ، شارع
الملوانى ، والبيوت الصغيرة ذات الدور أو الاثنى تصطف على جانبيه ، ومن
أعلى الأبواب الخارجية تتدلى مصابيح للإضاءة ليلا . كل بيت ينطوى على
نفسه كالسر . النساء عورة والحب حرام ، والزواج إجراء من اختصاص
الرجال والعروس آخر من يعلم . غير أن بيت آل حلاوة خرق العقل والمعقول
وقام وحده ككلمة متحدية . عرف بالبيت السىء السمعة وأحيط بسياج من
الرهبنة . ومجرد جريانه على لسان صبى أو بنت كان جريرة يستحق من أجلها
الزجر . وضربت حوله المقاطعة كأنه وباء . وحتى اليوم لا يذكر إلا مصحوبا
بسوء الظن وبذلك تحدد فى التاريخ . آه .. كيف كان ذلك ؟!

كانت ربة البيت — وهى زوج لموظف كبير — امرأة متبرجة . تبدى فى
الطريق فى كامل زينتها عارضة حسنا رائقا رغم بلوغها الخمسين ، وهى السن
التي انتهت عندها ميمى . وكانت أول امرأة فى الحى ترى سافرة فلا يرقع أبيض
ولا أسود . وقد تصطحب معها بناتها الأربع فتمضى بهن سافرات كذلك ،

أخذت زينتهن ، وهو ما لم يسمح به لبنت قبل خطبتها . وكن يذهبن مرة في الأسبوع — مع الزوج أو دونه — إلى سينما كوزموجراف ، وقد يسهرن في مسرح من المسارح فلا يرجعن قبل الواحدة صباحا . أى امرأة وأى رجل وأى بنات ! . والأدهى من ذلك كله أنه كان للأسرة يوم زيارة تستقبل فيه بعض الأسر بكامل هيئتها فيختلط الجنسان بلا حرج . وكان شبان الحى يسيرون جماعات تحت حجرة الاستقبال المتألقة بالأنوار ، يصفون إلى الضحكات المتصاعدة ، وعزف البيان ، والغناء ، وكلما ظهر في النافذة طربوش تبادلوا الغمزات والنكات وذهبوا في التأويل كل مذهب وتحيلوا أعجب المواقف . لذلك كله لم يكن غريبا أن يذكر بيت حلوة مقرونا بلفظة « دعارة » دون مناقشة . وكانت الأسرة على علم بآراء الجيران ومشاعرهم ولكنها لم تكثر لذلك أدنى اكتراث ، وترفعت الهائم عن الجميع وسارت في طريقها شامخة الأنف كأنها من سلالة غير سلالة الحى جميعه .

وكانت ميمي ترى كثيرا في الطريق أو في دكان الحلوى . ترى وحيدة وكانت صغرى البنات وفي الخامسة عشرة وكانت جميلة كأخواتها وأمها وإن لم يعد يذكر من آى ملاحظتها إلا شعرها الأسود المتجمع في ضفيرتين ريانيتين وعينين خضراوين وغمازة في الذقن . وكان يسترق إليها نظرات دهشة متسائلة مليئة بحب الاستطلاع ، ولم تخل أول الأمر من ازدراء وسخرية ثم حل محلها إعجاب وافتتان فكان يقول لنفسه محزوناً : « يا للخسارة » . وشغف بها وكان يكبرها بعام أو اثنين ، واحتفظ بسره لنفسه قطعاً للألسنة ، وكان البعض يغازلها طمعا فيها باعتبارها صيدا سهلا ولكنه لم يكن عرف الاستغلال قلبه . وذات مساء وهبته نظرة على غير انتظار . كانا واقفين بدكان الحلوى فوهبته نظرة غير قصيرة أثلته فترنح بعيدا عن تيار الزمان وأفعمت قلبه بهجة ظافرة . فاض قلبه بسعادة مشرقة اقتلعت منه الوسوس فلم يعد يشترك في الأحاديث



.. وإن لم يعد يذكر من أى ملاحظتها إلا شعرها الأسود المتجمع
في ضفيرتين رياتين وعينين خضراوين وغساسة في الدفن ..

البهيمية عن البيت السيء السمعة . وآمن بأن شعور قلبه الأصيل أخطر من جميع ما يقال . وفي ليالي رمضان راح يلاعبها من بعيد بكبريت الهوا فيشعله في الطريق فتشعله بدورها في النافذة . وتواعدا على اللقاء عند صحراء البنديرة . ووجد نفسه عند اللقاء مرتبكا حقا ولكنها بادلته التحية دون تلعم وبشجاعة ردت إليه روحه الضائعة . وقالت :

— أنت في البدلة أرسق مما تظهر في الجلباب وأنا أحب الرشاقة !
وكل كلمة جادت بها كانت كشفا جديدا وجرأة مذهلة . وكانا صغيرين جدا بالقياس إلى خلفية الصحراء المترامية وراءهما ورغم ذلك قال في حذر :
— قد يرانا أحد !

فتساءلت :

— مثل من ؟!

— من الأهل أو الجيران .

فهزت منكبها استهانة وهواء الصيف المنعش بهفو يصفيرتها ثم سألته :
— ما رأيك في حديقة الحيوان ؟

وامتنع عن تقييلها تأدبارا رغم ستوح الفرص . وأعطته رقم التليفون ليتفقاً في الوقت المناسب ولعله ما يزال مسجلا في دفتر المذكرات القديم . وسألته :

— هل نذهب إلى الحديقة معا ؟

فقال برجاء :

— نلتقى هناك ونفترق هناك !

وتلاقيا عند باب الحديقة وكان يوم سعيد . سارا من ممشى إلى ممشى يبيدين مشتبكتين . واستمد من مسها تيارا من الحرارة والبهجة والرضى وسألها كأنما ليطمئن عليها :

— ماذا قلت لماما ؟

فأجابت ببساطة :

— قلت أنى ذاهبة إلى حديقة الحيوان !

فتساءل أحمد ذاهلا :

— وحدك ؟

فهزت رأسها نفيا وقالت بالبساطة نفسها :

— معك ..

فضحك معلنا عدم تصديقه ولما وجدها جادة جدا سأها :

— وهل وافقت ؟

— نعم !، ولكن دون حماس ..

لم يدر كيف يصدق هذا كله أما هي فاستطردت :

— قالت لى ابتعدى عن هذا الولد ، إنه كالأخرين ، وأهله كبقية

الجيران ..

وشعر بأنه مطارد . ووقف طرفه الحائر عند رأس نعامة سارحة فى الفضاء

من فوق الحاجز الحديدى .

ثم قال بقلق :

— إذن هى تعلم أننا هنا معا !..

— وراهنتنى على أنك ستخيب رجائى ..

— كيف ؟

— من أدراى ؟

بل هى تدرى ولكنها تظاهرت بالاهتمام بالقرود ، ثم وقفت فوق قنطرة

تأمل الماء المسقوف بأوراق الشجر ، واقترحت أن يعدوا حتى الجبلالية ولكنه

شد على يدها قائلا :

— خبرينى !

فنظرت في عينيه بجرأة وقالت :
— أنت لا تصدق أنها تعرف أننا هنا ولكنك تعلم بزواج أخيك الأكبر من
ثلاث في وقت واحد !
فاحمر وجهه وقال :
— هو حر ..
— لا تغضب من فضلك ، فغضبك يؤكد ظننا ، هل عرفت الآن ما سألت
عنه ؟
وداخله حزن . الواقع فاق ما تخيله . إنهما من عالمين بعيدين . ورغم ذلك
ازداد بها هياما .
ثم تساءل بصوت منخفض :
— وكيف وافقت على هذا اللقاء ؟
— لم لا ؟ . هو عيب !؟
ولم ينبس فسألته بسخرية خفيفة :
— ولم وافقت عليه أنت ؟
فلم ينبس أيضا فسألته :
— أيجب أن نفترق !؟
فاستعطفها بجرارة لتعود إلى الرضى وقال معتذرا :
— لا تغضبي ، أنا أخطئ كثيرا وعذري أنى أقابل بتنا لأول مرة ! .
فرمقته بتوجس وتساءلت :
— وماذا تظن بى أنا ؟
فبادرها تجنبا للمضاعفات :
— كل بخير ، أنا .. أنا أحبك يا ميمي ..
وابتسمت . ومضت به إلى أريكة تمتد أمامها هضبة معشوشبة تناثرت في

جنباتها مجموعات من البشر فجلسا جانبا إلى جنب صامتين ، حتى قطعت الصمت قائلة :

— حدثني عن مستقبلك ..

وتحدث عن مستقبل مشرق من خلال كلية الحقوق وإن يكن أوشك أن يختم حياته مراقبا للمستخدمين لا مستشارا في النقص كما حلم . فقالت :

— هذا جميل حقا ، ولكن ماذا عنى أنا ؟

ووجد نفسه في القفص كالحيوانات التي تحيط به من كل جانب فقال في اقتضاب شديد حددته الرهبة :

— الزواج ..

فابتسمت وهي تحول وجهها عنه مادة بصرها إلى قمة الهضبة الخضراء وقد غابت عن مسمعه ضجة الأصوات الآدمية والحيوانية . ثم قالت وهي ما تزال تنظر إلى بعيد :

— ولكن أماننا أعواما طويلة !.. كيف ...؟

فقال وهو يتلمس متنفسا :

— لا بد من الانتظار حتى أنتهى من الدراسة ..

— سأنتظر بكل سرور ، ولكنى فى حاجة إلى شىء يبرر انتظارى أمام الآخرين ، أى شىء ، ارتباط من أى نوع !؟

تخيل طلبه الارتباط بينت من البيت السيء السمعة بتعاسة ورعب ، وانعقد لسانه فلم ينطق ..

— ماذا قلت ؟

— من العسير حقا أن أطلب ذلك الآن ..

— ألا تقدم على هذه الخطوة من أجلى ؟

فتهد بصوت مسموع وهو يشعر بأنه جرى مرحلة طويلة من التاريخ دون

توقف ، فقالت بحدة :

— أنت لا تريد ، ليس عندك الشجاعة الكافية ، أبيتنا مخيف إلى هذه

الدرجة ؟

— لا .. الأمر وما فيه ..

— لا تكذب ، أنا أعرف كل شيء ، وماما لم تخطيء ، وشارعنا كله

سخافة في سخافة ، ونحن أشرف من الجميع ، يجب أن تعرف ذلك ..

فهتف متألماً :

— إنك تسيئين بي الظن ، أنا في حاجة .. أرجو أن تقدرى موقفى ،

أعطيني ..

— لا داعى لهذا الارتباك كله ، لتنس كل ما قيل ، كله سخيف من أوله إلى

آخره ..

— لكننى أحبك ، ليكون الأمر سرا بيننا حتى ..

— نحن لا نحب السر !

— حتى أقف على قدمى ؟!

— لن تقف على قدميك أبدا ..

ثم وهى تكاد تمزق منديلها الصغير من الانفعال :

— أعوذ بالله ! أنا لا أحترم أحدا في شارعنا ! .. بلا استثناء ..

بلا استثناء ..

هكذا انفصلا إلى الأبد .

وكان مستقبل سيل الذكريات وهو ينظر إلى الكرسي الذى طالعه منه بوجه لم يحفظ من ماضيه إلا أضعف الأثر . أرملة أضناها التعب والحداد ولكنها معتزة بانتصارات حقيقية . وحومت حوله الذكريات كأسراب من البنفسج . تذكر كيف تزوجت بنات البيت السيء السمعة واحدة بعد أخرى رغم

ما سمع مرارا وتكرارا بأنهن بنات لم يخلقن للزواج ولن يسعى إلى الزواج منهن أحد . وكلما جاءه نبأ عن توفيقهن في زواجهن ذهل واختلت موازينه .. !
ومضى إلى بيته بعد ميعاد انتهاء العمل الرسمي فتعدى ونام ليستعد لسهرة في الأوبرا دعى إليها هو وزوجته وبناته الثلاث . وكان الداعي زميلا لكبرى بناته الموظفة في إدارة الترجمة بالوزارة وقد قبل الدعوة رغم أن الداعي لم يرتبط بكرمته بأى ارتباط بعد ! . وعند المساء خلا إلى نفسه في حجرة مكتبه على حين نشطت الزوجة والبنات للاستعداد لسهرة الباليه المنتظرة ، عما قليل يتبدن في صورة كاملة من الزينة والأناقة ثم يتقدمنه تحت الأضواء والأنظار ترمقهن بإعجاب ! . ولم يكن غريبا أن يستخرج دفتر مذكراته القديم من الدرج الخاص بالأوراق الثمينة كعقد ملكية الأرض وبوليصة التأمين . وكان اعتاد على عهد المراهقة — وهو عهد كان يحلم فيه بعرش الزجل ! — أن يسجل أحداثه العاطفية والاجتماعية يوما بعد يوم . وقرّ صفحاته ليرجع إلى عام ١٩٢٥ وما حو اليه حتى رقم التليفون وجده . وبدافع لم يعرف كنهه امتدت يده إلى قرص التليفون فأدارت الرقم القديم . وجاءه صوت :

— آلو !

فسأله وهو يتسم في عبث :

— بيت حلاوة ؟

فأجاب الصوت بخشونة :

— لا يا سيدي .. هنا محل الطمبيل لبيع الخيش ..

الفهوه النخالية

قال محمد الرشيدى بنبرة أرعشها الحزن والأنفعال :
— إلى رحمة الله الرحيم ، إلى جوار ربك الكريم يا زاهية يا رفيقة عمرى ،
إلى رحمة الله .

وانتحب باكيا وهو ينحنى فوق الجثة المسجاة على الفراش ، معتمدا يميناه
على الوسادة من شدة الإعياء ، حتى رحمته الخادم المعجوز فربتت على يده برقة
ثم أخذته منها إلى حجرة الجلوس فأسلم نفسه إلى مقعد كبير وهو يتنهد بصوت
مسموع . ومد ساقيه وهو يتأوه ثم غمغم :

— أنا الآن وحدى ، بلا رفيق ، لم تركننى يا زاهية ؟ وبعد عشرة أربعين
عاما ! لم سبقتنى يا زاهية ؟

وعزته الخادم عبارات محفوظة غير أن منظر شيخ فى التسعين وهو يبكى
منظر محزن حقا ، وقد التمت أحاديده خديه وحفر أنفه بالدموع ، فغادرت
الخادم الحجره وهى تجهش فى البكاء . وأغمض عينيه اللتين لم يبق فى أشفارهما
إلا آحاد من الرموش وراح يقول :

— منذ أربعين عاما تزوجتك وأنت فى العشرين ، ربيتك على يدي ، وكنا
سعداء جدا برغم فارق العمر ، وكنت خير رفيق ، يا طيبة يا إنسانة ، فإلى
رحمة الله ..

وكان ذا صحة جيدة إذا قيس بعمره ، طويلا نحىلا ، واختفى أديم وجهه
تماما تحت التجاعيد والأحاديده ، وبرزت عظامه وتحدت كأنها جمجمة ، وفى
عينيه غارت نظرة تحت غشاوة باهتة لا تنعكس عليها مرئيات هذا العالم . وأمَّ
الجنائز خلق كثير ولم يكن فيهم واحد من أصحابه أو معارفه . جاءوا يعزون

ابنه أو إكراما لزوج ابنته الموظف بإحدى السفارات في الخارج أما هو فلم يبق من أصحابه على قيد الحياة أحد . وجعل يستقبل الوجهة التي لا يعرفها ويتساءل أين رعييل المربين الأول ، أين الساسة الحقيقيون على عهد مصطفى وفريد ١٩ .

وعندما انفض المآثم حوالى منتصف الليل سأله ابنه صابر :

— ماذا نويت أن تفعل يا أبى ؟

وقالت له زوجة ابنه :

— ولا يجوز أن تبقى هنا وحدك ..

أدرك الشيخ ما يقصدان فتشكى قائلاً :

— كانت زاهية كل شيء لى ، كانت عقلى وىدى ..

فقال صابر :

— بيتى هو بيتك ، وستحل بملولك بنا البركة .. وستجىء خادمتهك
مباركة لخدمتهك .

أجل لا يمكن أن يقيم فى هذا المسكن وحده . ورغم ما يبدى ابنه وزوجته من شعور طيب فهو يؤمن بأنه — بانتقاله — سيفقد الكثير من حريته وسيادته ولكن ما الحيلة ١٩ . وكان فى شبابه ورجولته وكهولته شخصا صلبا ، وما زال يحتفظ بوقاره ومهابته ، وكم خرج من أجيال من المربين والشخصيات الفذة ، ولكن ما الحيلة ١٩ . وبطرف واجم شهد الرجل تصفية مسكنه . رأى أركانه وهى تقوض كما رأى احتضار زوجته من قبل فلم يقفوا إلا على ملابسه وفرشه وضوان كعبه التى لم يعد يمد لها يدا وبعض التحف وصور لأعضاء الأسرة ولبعض الرجال كمصطفى كامل ومحمد فريد والمولىحى وحافظ إبراهيم وعبدالحى حلمى . وغادر بيته إلى مصر الجديدة فى سيارة ابنه ، وهناك أعدت حجرة لنومه وتأهبت مباركة العجوز لخدمته . وقال له ابنه :

(بيت سبى السمعة)

— نحن جميعا رهن إشارتك ..

وابتسمت منيرة زوجة صابر ابتسامة ترحاب . روح طيبة حقا ولكنه لا بيت له ، ذلك كان الشعور الذى اجتاحه . وجلس على مقعده الكبير يادها النظرات فيما يشبه الحياء . وقال لنفسه لعله لو كانت سميرة ابنته فى مصر لوجد فى بيتها أنسا ألصق بالقلب . وظهر توتو عند عتبة الباب . ردد عينيه بين أبويه ثم جرى حتى لبد بين ساقى والده . ونظر إلى جده بتأمل فابتسم الشيخ قائلا :
— أهلا توتو .. تعال ..

ونادرا ما كان توتو يزور جده مع والده . وأحبه الشيخ كثيرا ولم يقتصد فى مداعبته كلما وسعه ذلك ولكن توتو كان حادا فى مداعباته ، فهو يحب الوثب على من يداعبه ويهدد عينيه وأنفه بأظافره فسرعان ما تجنبه الشيخ بلطف مؤثرا أن يجبه من بعيد . وأشار توتو إلى طربوش جده الطويل وقال :
— رأسك !

يعنى أن يخلع طربوشه ليرى صلته البرتقالية المستطيلة المنحدرة التى جذبت انتباهه وتساؤله من أول نظرة ، ولما لم تتحقق رغبته راح يشير إلى أخاديد الوجه وحفر الأنف وتتابعت أسئلته رغم محاولات والده لإسكاته . وقال الشيخ لنفسه إن الطفل العزيز لن يعتقه من المتاعب وأنه سيحتاج إلى حماية ولكن أين زاهية ؟ . وساعته ومنشته وسجائره كيف يحفظهما من عبثه ؟ . وحاول توتو أن يذهب إلى جده ليحقق رغائبه بنفسه ولكن والده أمسك به ودعا خادمته فحملته إلى الخارج وهو يصرخ محتجا . وقال صابر :
— إني أفرغ من عملى مساء ثم أذهب إلى النادى أنا ومنيرة فهل تأق معنا ؟
فقال الشيخ :

— لا تشغل نفسك بى ودع الأمور تجري على طبيعتها ..

وذهب صابر ومنيرة فرحب بالوحدة ليستجم ، ولكن الوحدة ثقلت عليه

بأسرع مما تصور . وألقى نظرة غير مكترثة على الحجره ثم طوقته الوحشة .
متى يعتاد المكان الجديد ومتى يعتاد الحياة بلا زاهية ؟. أربعون عاما لم تخل يوما
من زاهية . منذ زفت إليه في الحلمية ورقصت أمامهما الصرافية . والبيت
بفضل يدها ينعم بنظام ونظافة وعبير بخور زكى . وما قيمة رمضان والأعياد
بدونها ؟. وخلت الجنازة من أجيال وأجيال من تلاميذه فهل لم يعد يذكره
أحد ؟.

ولم يكن كذلك حال الأصدقاء الذين ذهبوا . ولكنهم ذهبوا وكأنما يراهم
فردا فردا كيوم احتشدت بهم جنازة مصطفى كامل . ورغم أنه لم يعرف
الأمراض الخطيرة قط فقد امتحنت المسكينة بالدنج والتيفود والأنفلونزا وأخيرا
ماتت بالقلب ، وثركته متعلقا بالحياة كما كان دائما . وقام إلى نافذة فرأى منها
بستانا كبيرا يتوسط مربعا من العمارات مكان الجامع الكبير الذى كان يطالعه
من نافذة حجرته بالمثيرة . ولفحته نسمة هواء جافة دافئة . وعجب للصمت
المريح ولكنه أكد له وحدته . ويوم احتل الإنجليز القاهرة ظفر بجواد ضال
ولكن والده خشى العاقبة فضربه ومضى بالجواد ليلا إلى الخليج ثم أطلقه وكانت
المدينة ترتجف من الخوف والحزن . ورجع إلى مجلسه فرأى عند أسفل المقعد
قطة صغيرة . بيضاء ناصعة البياض غزيرة الشعر وفي جبينها خصلة سوداء
فأنس في نظرة عينها الرماديتين استعدادا للتفاهم . وزاهية طالما عطفت على
القطط . وارتاح إلى نظرتها ثم تابعها وهى تدور حول رجل المقعد وربت على
ظهرها فتمسحت بقدمه وعند ذلك ابتسم . ومسح على ظهرها فاستجابت
لراحته وخفق ظهرها صعودا وهبوطا فبشر ذلك بمودة . وابتسم مرة أخرى
عن أنياب بانث أصولها الطحلبية وشملت القطة حركة متموجة من المرح .
وترححت قليلا إلى اليسار ليوسع لها مكانا ولكن صوت توتو المتهدج بالجرى
ارتفع وهو يقتحم الحجره صائحا :

— قطتى ..

فقال الشيخ مسلما :

— ها هي قطتك ..

وسأله متوددا عن اسمها فقال بحدة :

— نرجس .

وقبض بشدة على قفاها ثم جرى بها خارجا والشيخ يهتف به مستعظما :

— حاسب .. حاسب ..

وإذا به قد ذهل !. عجب ماذا حصل ؟. وتبين أن شيئا أصاب جبينه .
وقطب مستاء فارتفعت ضحكة توتو عند الباب وهو يلتقط الكرة الصغيرة
المرتدة . وتحسس الشيخ النظارة ليطمئن عليها ثم نادى مباركة فجاءت بسرعة
وحملت الطفل مبتعدة به قبل أن يعيد رمى الكرة . وقال الشيخ :

— هذا الطفل العزيز مزعج وقاس ، من للقطعة المسكينة !

منذ خمس سنوات فقدت سميرة ابنته طفلا في سن توتو فعزاها باكيا وهو

يقول :

— كان الأجدد أن أموت أنا ..

وخيل إليه وهو في المأتم أن الأعين ترمق شيخوخته بدهشة مستحضرة
التناقض الصارخ بين بقاءه هو وذهاب حفيده في الثالثة . وليتها قال لزاوية
ممتعضا :

— طول العمر لعنة ..

ولكن ما أرقها إذ قال له « كلنا فداك .. أنت الخير والبركة » .

وعند الأصيل عاد صابر من عمله فقال لأبيه :

— ما دمت لا تريد أن تذهب معنا إلى النادي فاختر مقهى في مصر

الجديدة ، مقاهى مدينتنا جميلة وقرية من البيت ..

قد يكون هذا هو المعقول ولكنه يجب قهوة متاتيا . إنها مجلسه المختار طيلة دهر طويل . ومضى إلى محطة الأوتوبيس ، وهو يسير إذا سار وثيدا ولكن بقامة مرتفعة ويستعمل العصا ولكنه لا يتوكأ عليها ، وكثيرون هم الذين يتطلعون إليه في دهشة مقرونة بإعجاب . واتخذ مجلسه بالقهوة تحت البواكى وهو يقول لنفسه فيما يشبه المداعبة : « ما بال القهوة خالية ا » . ولم تكن القهوة خالية . ولا كان بها من التراييزات الخالية إلا عدد محدود . ولكنها خلت من الأصحاب والمعارف . ومن عادته أن يرنو إلى الكرسي التي حملت قديما الأعراء الراحلين فيتخيل وجوههم وحركاتهم ، والمناقشات حول أخبار المقطم ، ومباريات الترد الحامية ، والسياسة . قضى الله أن يشيعهم واحدا بعد آخر وأن ييكمهم جميعا . وجاء زمن لم يجك فيه من رفيق سوى واحد هو على باشا مهران . وهذا الكرسي كان مجلسه . يجلس عليه قصيرا نحيلما مكموما فوق عصاه وحافة طربوشه تماس حاجبيه الأشيبين النافرين ، ويرمقه بنظرة هشة شبه دامعة من نظارة كحلية ثم يتساءل :

— من منا يا ترى سيسبق صاحبه ؟

ثم يفرق في الضحك ، وكانت يدها قد استوطنتها رعدة الكبر رغم أنه كان يصغره بعامين . ولما مات في الخامسة والثمانين حزن عليه طويلا ، ومن بعده خلت الدنيا وختت القهوة . وها هي العتبة الخضراء تدور كعادتها أمام عينيه الكليلتين ولكنها ميدان جديد . وماتاتيا نفسها لم يبق من أصلها إلا الموضع ، ولكن أين صاحبها الرومى الودود ، وأين النادل ذو الشوارب البلقانية ؟ . والكراسى المتينة البنيان والتراييزات الرخامية الناصعة والمرايا المصقولة والبوفيه العامر بالمشروبات والنراجيل أين ؟ . وفي ليلة شم النسيم من عام ١٩٣٠ أجيل إلى المعاش . وسهر ليلتها في مسرح الأزبكية هو ومجموعة من الأصدقاء حيث جلجل صوت الطرب ، أما النهار فقد قضوه في القناطر الخيرية محتفلين بوداعة

وألقى الشيخ إبراهيم زناتي قصيدة . وليتها شرب من الكونياك حتى ثمل وهو يطرب للصوت المنشد « يا عشرة الماضي الجميل » ولما نام آخر الليل حلم بأنه يلعب في الجنة . ودعا له إبراهيم زناتي مفتش اللغة العربية بمائة عام من العمر المديد في قصيدته . والدعوة يبدو أنها ستستجاب . ولكن القهوة خالية . والشيخ زناتي نفسه رحل وهو ما يزال في الخدمة . واقترب النادل منه ليأخذ الصينية ولكنه تراجع كالمعتاد . فذكره بفنجال القهوة المنسى الذي لم يمسه . وعندما رجع إلى البيت وجده راقدًا في السكون ، وصاحبه لم يعد من النادي . ووجد عشاءه من الزبادي على خوان . وغير ملابسه في بطء وجهد ودون معاونة أحد . وجلس لتناول العشاء فتذكر نرجس . لو تشاركه القطة الصغيرة عشاءه؟! ما ألفت أن يوثق علاقته بها فهي ستكون أنيسه الحقيقي في هذا البيت المشغول بنفسه . لعلها في موضع ما بالصالة . ومال نحو الباب قليلا وهتف : « بس .. بس » . وقام فمضى إلى الخارج وصاح : « نرجس ، بس .. بس .. » فجاءه النواء من وراء الباب التالي لحجرته حيث ينام توتو وخادمته . وتفكر قليلا ثم اقترب من الباب ففتحه برفق فمرقت منه نرجس رافعة ذيلها الدسم كالعلم .

أرتاح الشيخ فعاد نحو حجرته وهي تتبعه ولكن صرخة توتو دوت غاضبة . وقال الشيخ لنفسه باسم أن الصغير لم يكن استغرق في النوم . وجاء توتو جريا فانقض على القطة ثم قبض على قفاها بشدة . وربت جده على رأسه قائلا بركة :
— خفف يدك يا توتو ..

ولكن الآخر ضاعف ضغطه حتى خيل إلى الشيخ أن نرجس ستختنق فقال
برجاء :

— اذهب أنت وسأحملها إلى فراشك ..

ولكن توتو لم يسمع له فمال الشيخ نحوه وخلصها من يده وهو يقول :

— سأطعمها ثم أعيدها إليك ..



واتخذ مجلسه بالقهوة تحت البواكي وهو يقول
لنفسه فيما يشبه المداعبة : « ما بال القهوة خالية ! »

اندفع توتو غاضبا ثم دفع جده في ركبته . ترنخ الشيخ ، ثم تراجع خطوة مضطربة ، ثم تهاوى فكاد يسقط على الأرض لولا أن تلقاه الجدار ، والقطة لم تنزل فوق ساعده . ولبت في هذا الوضع المائل ، لم يستطع أن يقيم نفسه ، ودار رأسه قليلا ، وضغط على الأرض بقدمه وعلى الجدار بكتفه لينهض ولكنه عجز ، وزحفت القطة فوق ساعده حتى استقرت على كتفه المرتفع ، ورغم دوار رأسه الخفيف أدرك مدى الخطر الذى يهدد عظامه بالكسر . وصاح بما تبقى لديه من قوة « يا مباركة » . وكان توتو يصرخ وينذر توثبه بهجمة جديدة . ويشس الشيخ من إنقاذ نفسه . ازداد خورا ولم يستطع تكرير النداء . وتحفز توتو للوثوب إلى ملاذ القطة فاندفع بكل قوته ولكن يد خادمته أحاطت بوسطه وقد اندفعت من الحجره بعينين ذاهلتين من أثر النوم . ثم جاءت مباركة أخيرا بعد أن أيقظها الزياط فجرت نحو سيدها مستعيذة بالله . واحتضنته من خلف وأقامته برفق وهو يتأوه حتى وقف كالتمثال دون حراك على حين وثبت نرجس إلى الأرض وفرت إلى حجرته . وبصعوبة شديدة رجع الشيخ إلى مقعده الكبير معتمدا على ذراع مباركة . ومضت فترة وهو صامت والمرأة لا تكف عن السؤال عن صحته . وأشار لها بيده يطمئنها ، ثم أسند رأسه إلى ظهر الكرسي ومد ساقيه متنهدا . وأغمض عينيه ليستجم .

وفي الحال تذكر حفلة تأيين راسخة في الروح . رجع من المنصة بعد أن ألقى كلمة طيبة ثم جلس إلى جانب صديقه ، ومال الصديق نحوه وسكب في أذنه ثناء جميلا . لكن من كان ذلك الصديق ؟ آه .. إنه واثق من أنه سيتذكره ، وكم أنه مذهل أنه نسيه . قال كلمة لا يمكن أن تنسى كذلك . سوف يتذكرها حتما . ودوى التصفيق والهتاف ، وارتفع نواء القلط ، وبكت كل عين حتى الأطفال ترامى صراخها . ومال الصديق نحوه مرة أخرى وقال . وتأكد من أنه سيظفر بالذكريات جميعا .

وسرعان ما استغرق في النوم ..

كلمته في السرّ

فؤاد أبو كبير موظف قديم أو شك أن يستوفى مدة خدمته ، وهو مثل حسن للموظف ، مثال في اتزانه فهو محترم حقا ، ودعوب على العمل فهو حمار شغل ، ولم تزايله هذه الصفة يوما منذ التحق بالخدمة بالكفاءة وهو ابن عشرين . وقد انطبع بالروتين حتى تغلغل في روحه وسرى في سلوكه حتى السلوك غير الرسمي فهو يرجع إلى بيته كل يوم حوالى الثالثة ، يتغدى وينام حتى الخامسة ، ثم يمضى إلى القهوة حوالى السادسة فيدخن النارجيلة ويتكلم فى الكادر والسياسة ، ثم يلعب النرد ، وأخيرا يعود إلى بيته عند الحادية عشرة فيتعشى خفيفا ويصلى ثم ينام .

وهو زوج منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما ، وزوجه التى تزوجها عن قرابة وحب تقاربه فى السن ، وقد أنجب منها خمس بنات وولدا واحدا تخرج منذ أعوام طيبيا ، والجميع متمتعون بنعمة الحياة الزوجية الموفقة .

ولتوفيقه فى الوظيفة إذ حاز رضى الرؤساء وبلغ الدرجة الثالثة الإدارية ، فضلا عن توفيقه فى الذرية ، كان يخاف العين ، ويتقى شرها بالدعاء والصلاة ، ولكنه كان بصفة عامة رجلا سعيدا ، وحتى ما أصابه من ضغط لم يستطع أن يفسد عليه حياته وإن فرض عليه مضايقات فى العلاج وحرمانا من بعض الأطعمة الشهية .

وذات يوم شعر بنشاط غريب طارئ . نشاط غريب كأيام زمان . ربه .. نشاط غريب انقطع العهد به من سنين ، كأيام زمان تماما ، فما الذى حدث ؟! . وابتسم الرجل وهو يهز رأسه ، ابتسم عن طاقم نضيد وهز رأسا أبيض ناصعا ، وعابته النشاط فى أوقات متفرقة وبخاصة عند اليقظة الباكرة ، وإذن فهى وثبة حقيقية لا وهم ، وابتسم الرجل وأوشك أن يضحك عاليا .

ولم تستطع خبرته الحكومية أن تمدّه برأى في المسألة ، وقال لنفسه إن هذا أمر غير معقول ، وغير مصدق ، ألم ينقض العمر !؟
 ونتيجة لذلك وجد نفسه تتابع الموظفين باهتمام لم يؤثر عنها من قبل . نظرة جديدة غير نظرة الأبوة السابقة ، وكأنه كان يراهن لأول مرة ، وخلال أسبوع رأى فيهن ما لم ير طيلة عام أو أعوام ، ومجرد مرور إحداهن في مجال بصره أصبح كافيا لقلقلته حواسه وزلزلة قلبه فراح يقول لنفسه في ذهول :
 « اللهم لطفك ورحمتك ، ماذا جرى !؟ » .

وخطر له وهو مترعب على الكنبه قبل النوم أن يتناول زوجته بنظرة . كانت الولية تستمع إلى الراديو بغير اهتمام ، وجسمها مدفون في جلباب بيتي فضفاض ، ومنديل رأسها معقود بإهمال سمح لخصلات بيضاء مشعثة أن تبرز فوق الحاجب والأذن بصورة تستحق الرثاء ، وفي عينها استكنت نظرة خاملة لا تنشد إلا السلامة ، ووشى شدقاها بالفراغ ، إلى أن الآلام الروماتزمية المتقطعة قد طبعت على وجهها علامات ثابتة كالذعر . رمقها بيأس ثم رفع عينيه إلى صورة تذكارية من شهر العسل ، صورة نصفية لهما ملونة ، تمثلهما جنباً إلى جنب في احتشام محبب لا كمرسان هذه الأيام ، آه .. فوزية كانت جميلة حقاً ، وكم كان هو بدينا فخماً ! . وقال لها دون تمهيد وبلهجة لم تخل من احتجاج :

— قلت لك مائة مرة ركبى طاقم أسنان !

وضحت في عينها دهشة تنبئ بالحقيقة التي لا يبجلها وهي أنه لم يطلب منها ذلك ولا مرة واحدة ، وغمغمت والدهشة لم تفارقها :

— طاقم أسنان !

وحقيقة أخرى لا يبجلها أيضاً وهي أن الأيام قصرت علاقتهما على الزمالة والصدقة منذ بضع سنين فكيف يمكن لهذا الوضع أن يتغير فجأة !؟ . وكانت

تجلس على نفس الكنبه على بعد ذراع منه ، وفيما بين أوقات الاستماع إلى الراديو تتلو آية الكرسي بصوت خافت وبعض الصور القصار التي تقيم بها صلواتها الخمس . ولفه إحساس بالغبرة ولكن قلقة الطارئ العجيب كان أقوى من الغبرة فقال :

— قلت ذلك مائة مرة !، ومالك تهملين نفسك إلى هذه الدرجة !

فأوقفت التلاوة لتقول له :

— أمرك عجيب ..

يا له من موقف !. لعنة الله على المرض . وعلى الجنون . لكنك تسب الجنون بلسانك فقط . هذا واضح . يالها من مهزلة . ومد ذراعه على مسند الكنبه إلى ما وراء ظهرها ، ثم ربت على قفاها ضاحكا فهزت رأسها متمتمة :

— أمرك عجيب ..

فهمس بعد جهد غير يسير :

— كأيام زمان !

فانكمشت المرأة ، ترحزحت حتى طرف الكنبه وهى تغمغم :

— يا عيب الشوم !

ولما رآها مقوسة على خجلها أدرك مدى سخفه ، وواصل اكتشافاته في الوزارة والطريق والقهوة حتى احترقت عيناه . وارتدت الأعوام الماضية بجرارتها الاستوائية . وهام على وجهه في مظان الهوى في الحدائق وحفلات السينما الصباحية وراح يقول لنفسه : « ما أعجب هذا .. وما أبهجه » . وشعر بأنه مطارذ وأنه يوشك أن يضبط متلبسا ، وأنه لا يستطيع أن ينسى عمرا كاملا من الوقار والاستقامة وحسن السمعة . ولكنه لم يتوقف ، بل ولم يعد يقنع بالمغامرات النظرية . وذكر أبناءه وأحفاده ، وتوهم أى فضيحة كان يرعش أطرافه ويثقلها . وهل يمكن أن تعالج الأمور بالصبر ؟. وما جدوى

الصبر وهو من صلب فلاح تزوج في الحلقة السابعة ا. وما جدواه وهو يشم أريج الحب في كل مكان ا. وما عسى أن يفعل ؟. وبعد تردد ثقيل فاتح أحد أقرانه في القهوة بمتاعبه ولكن ماذا كانت النتيجة ؟. ضحك الرجل وقال :

— الظاهر أنك بحكم العمر انقلبت للإيمان بالخرفات .

فقال بجدة :

— ولكن ما أخبرتك به حقيقة لا شك فيها ا

فرفع الرجل يديه بالدعاء قائلا :

— اللهم بارك في عقل فؤاد أبو كبير !

كلا لا فائدة ترجى من هؤلاء الفانين ا. وعاد يتساءل عما عسى أن يفعل ؟. ست آمنة . وثب الاسم من الظلمات كالشهاب . ست آمنة جارته القديمة بروض الفرج قبل أن ينتقل بأسرته إلى المسكن الحالى بالسيدة . وهى صاحبة الشقة التحتانية ، أرملة ، وقد حاولت كثيرا أن تصادق زوجته ولكن فوزية لم تستخف ظلها . ولعلها في الأربعين أو فوق ذلك بقليل ، ولا تخلو من وسامة ، أما تألقها المبالغ فيه فيقطع مجبها الحياة .! وفي عهد الجوار سنحت بينهما وقائع ولكنه حسمها باستقامته فوئدت ولم يعلم بها أحد . كانت تحببه عند خروجه إذا تصادف وجودها في النافذة وما أكثر المصادفات . وأكثر من مرة وهو راجع كان يراها من خلال الباب المفتوح وهى تخطر في قميص بيتى ا. ورغم ارتياحه الباطنى الذى كان باعته الزهو لا الرغبة فإنه لم يشجعها قط زاهدا ومشققا في الوقت نفسه من فضيحة تهز مكانته المرموقة في أسرته وفي العمارة . ومرة تعرضت له أمام شقتها فحيتها ثم قالت :

— تسمح دقيقة واحدة يا فؤاد أفندى ؟

وارتبك الرجل بشكل واضح فقالت :

— لدى مشكلة أود أن أعرضها عليك ا

وقع في الحمة دلت على ذهوله ثم قال بجهد :
— تفضلي بزيارتنا وستجديني تحت أمرك .

ومن وقتها تجاهلته تجاهلا كاملا وكان ذلك قبيل انتقاله إلى السيدة الذي مضى عليه ما يقارب العام . اليوم تدور أفكاره حول ست آمنة ، ويستعيد ذكرياتها بحرارة بلغت حد الهوس . انصهرت تلك الأفكار والذكريات في رأسه وهو ماض إلى روض الفرج . أجل بلغ مسكنه القديم في الوقت الذي كان ينتظر فيه أن يكون في القهوة . وضغط على جرس الباب وقلبه يفوس في الأعماق . وكم ذهلت ست آمنة عندما رآته أمامها كآخر شيء كانت تتوقعه ..

— فؤاد أفندى !

حرك رأسه بالإيجاب دون أن ينبس .

— خير إن شاء الله !

ثم نتحت عن الباب وهي تدعوه إلى الدخول . وجد نفسه في حجرة استقبال صغيرة معبقة بعبير ورد في زهرية على قائم معدني طويل في الركن . وغابت عنه وقتا ثم عادت آخذة زيتنها ملتفة في روب أبيض يذكر بفستان العرس . ولم تقتصد في إعلان اهتمامها بالزيارة مرددة « خير إن شاء الله » فطار من دماغه جميع ما أعده من قول ، ولكنه شعر بأنه مطالب بتفسير حضوره فقال :

— كنت مارا من هنا فقلت يجب أن أزور ست آمنة !.

ابتسمت المرأة وهي تتمم « خطوة عزيزة » ثم وهي تضحك :

— ولكنك لم تكن تحب زيارتنا !؟..

فاحمر وجهه وقال كالمعتذر :

— الواقع أن الظروف ..



وكم ذهلت ست آمنة عندما رآته
أمامها كآخر شيء كانت تتوقعه ..

وتوقف لا يدرى ماذا يقول . ثم ابتسم ابتسامة دلت على أنه يسترد توازنه
وقال :

— قلت مرة إن لديك مشكلة ..

فضحكت المرأة ضحكة عالية . وتبادلا نظرات باسمة فواتنه شجاعة
عظيمة فنهض ليجلس إلى جانبها على كنبه واحدة . ومد يده إلى يدها ولكنها
سحبها برقة وهي تقول :

— الظاهر أنك لم تفهمنى على حقيقتى يا فؤاد أفندى ..

لهجة جادة صدمت قلبه فانكمش . وعادت تقول :

— لست كما تتصور ، أنت قلت لنفسك آمنة أرملة ، وقد دعتنى مرة إلى

شقتها ، لا بد أن تكون ...

وهتف بحماس يغطي به فتوره وفشله :

— معاذ الله .. معاذ الله ..

فحدجته بنظرة جريفة وسألته :

— إذن ماذا تريد ؟

آه .. لم يتوقع هذا . خاب سعيك حقا ؟

— يجب أن تعلم أننى امرأة شريفة ، وتصرف بعد ذلك كما يحلو لك !

رجع وهو يقول لنفسه إن الأمر ليس بالبساطة التى حلم بها . ومع ذلك فقد
شدت على يده وهي تودعه وأعربت له عن مشاعر طيبة جدا . وقالت إنها
تنتظر زيارة أخرى بل وثالثة ورابعة ! . واضح جدا ما تريد . وحن بكل قواه
إلى عبير الورد ثم اعترف بأنه فقد عقله . ووجد فوزية تعاني أزمة من أزمات
مرضها فتضاعف همه . وتذكر الأبناء والأحفاد فتكدر لحد المرارة . وتؤكد
لديه أنه لن يستطيع مواصلة الحياة فى هذه الدوامه .

وفى خلال شهر من الزيارة الغريبة تزوج فؤاد أبو كبير من ست آمنة فى تكتم

تام .

ولم يستطع بعد ذلك أن يواجه أسرته بالحقيقة فكتب إلى ابنه الدكتور خطابا مسهبا أشبه بالاعتراف ، مؤكدا فيه أنه لن يتخلى عن واجباته نحو أمه . وأقام في مسكن آمنة في بيته القديم . وتوقع أن يتصل به ابنه أو إحدى بناته ولكن شيئا من هذا لم يحدث حتى خيل إليه أنه انتقل إلى عالم آخر ، وجعل يتخيل وقع المفاجأة في أسرته بذهول ، ولكنه طرح كل شيء جانبا وسلم نفسه للحب . وبعد مرور ستة أشهر كتب فؤاد أبو كبير خطابا آخر إلى ابنه الدكتور . أخبره فيه بأنه مريض ودعاه إلى مقابله . وهال الدكتور أن يجد أباه طريح الفراش . هيكلا عظيما مكسوا بجلد ذابل ، ونظرة الموت تطل من محجريه . هاله المنظر حقا فهت ، ولما رآه أبوه اغرورقت عيناه فانكب الشاب على يده المعروفة التي ضرب لونها إلى السواد يقبلها ويكي . وجلست آمنة صامتة طيلة العناق والبكاء ثم قالت :

— زاره ثلاثة أطباء !

ولكن الرجل قال :

— أريد أن أرقد هناك ..

فقالت المرأة وهي تحول وجهها جانبا :

— علم الله أنى لم أقصر في خدمته ولكن المهم هو راحته فإذا شاء ذهب .. عاد فؤاد أبو كبير إلى فراشه القديم هيكلا عظيما مكسوا بجلد ذابل ونظرة الموت تطل من محجريه . وأحاطت به أسرته ولكنه استغرق في النوم أكثر الوقت . وفي لحظات اليقظة كان ينقل بينهم عينيه صامتا أو ينادى اسما بلسان ثقيل وصوت شخص آخر . ولم يتحسن ولكنه دخل طورا جديدا يتسم بالغرابة . ومرة فتح عينيه وكان ابنه جالسا بجوار الفراش وحده فتساءل باهتمام :

— ماذا حدث ؟

فسأله الشاب عن حاله فتأوه قائلاً :

— الظاهر أنى ضعيف جدا .. ولكنى لا أدرى ..

فسأله بقلق :

— لا تدري ماذا ؟

— ماذا ؟! ، نعم ماذا ؟ ، ولكن لم ؟ ، هذه هى النقطة ..

وساد الصمت ملياً ثم استدرك قائلاً :

— لذلك لا أستطيع أن أقطع برأى ، شقى أم سعيد ؟!

وأشار إليه كأنما سيفضى إليه بسر لا يريد أن يطلع عليه أحد فقرب الشاب

وجهه منه فقال :

— عرفت كل شيء ، كل شيء ، حتى الهدف الحقيقى ..

ثم بدرجة أدنى من الانخفاض :

— ورغم التصميم على عدم النسيان نسيت ، حقائق مذهلة ولكن

ماهى ؟!

وألح ابنه عليه أن يستريح ولكنه عاد يقول :

— حقائق هائلة مذهلة ، ولكنها ضاعت جميعاً ...

وأغمض عينيه إعياء ثم غمغم :

— كم أود أن أتذكر ولو قليلاً كى أموت مطمئناً !..

النجوف

في تلك الفترة من أوائل القرن كان أهل الفرغانة أتعس الأحياء . كانت عطفهم تقع بين حارة دعبس من ناحية وحارة الحلوجي من ناحية أخرى ، وكانت الحارتان متنافستين متعاديتين لا يهدأ بينهما نزاع ، وقد عرف سكانهما بالشراسة والغلظة والعدوان ، وتسليتهم الأولى كانت العبث بالقوانين والناس .

وعلى عهد جعران فتوة الحلوجي والأعور فتوة دعبس اشتدت بين الحارتين العداوة وسالت الدماء وتعدد نشوب المعارك في الطرقات والجبل .

وتساءل أهل الفرغانة في جزع وما ذنبنا ونحن لا من دعبس ولا من الحلوجي ١٢ . ذلك أنه ما أن تنشب معركة في أي مكان حتى يعصف بهم الذعر فيتوارى كل بما يملك أو بنفسه وراء الأبواب ، ولم يكن من النادر أن يشتبك الخصمان فوق أرض الفرغانة نفسها ، وهناك ينقع غراب الخراب فتقلب العربات وتتحطم السلاسل وينفجر الصوات ويصاب الأبرياء بلا حساب حتى أمست الحياة في العطفة شرا لا يطاق وفاقت خسائرهم أصحاب النزاع أنفسهم وكره الحياة منهم حتى السعداء . ويوما استغاثوا برجال الدين فبذل هؤلاء أطيب ما عندهم من مسعى حتى اتفق العدوان على تجنب الفرغانة ويلات معاركهم . وكان يوم عظيم أرخت به الفرغانة لطمأنيتها ، ولكن أية طمأنينة ؟ .. لقد كلفتهم ما يطيقون وما لا يطيقون من حسن السلوك وطيب الجمالة والحرص على الحياد في المعاملة حتى ضاعت في ذلك أموال وابتذلت كرامات . وكلما فاض بهم الهم فأوشكوا على التمرد ذكروا الزمان الأول بما آسبه فازدردوا الألم صابرين ، ولكنهم رغم ذلك كله نعموا بفترة سلام نسبي لم يعرفوها من قبل .

حتى نزلت إلى الحارة نعيمة بنت عم الليثى بياح الكبدة .
ف عندما ضعف بصر العجوز حتى لم يعد يفرق بين النكلة والمليم اصطحب
معه نعيمة لتعاونه في عمله . نزلت إلى العطفة وهى فى مطلع سن الزواج .
وتصدت للمعاملة فى جلباب غطاها من العنق إلى الكهبين ولكنه وشى بقوام
معتدل ونمت التصاقاته العفوية بأجزاء الجسد عن بضاضة ، إلى امتياز الوجه
باستدارة ريانة فى لون الدوم الرائق ، وعينين لوزيتين فى لون الشهد المصفى
تعث فى نظرتها حيوية شباب مستجيبة فى سداجة للإعجاب . ورمقتها عيون
الشباب باهتمام ، وانجذبوا إلى فرن الكبدة القائمة فوق عربة اليد كما ينجذب
الذباب إلى السكر . وما لبث أن قرأ عم الليثى العجوز الفاتحة مع شاب بياح
بطاظة يدعى الحملى . وانتظر الناس الأفراح ولكنهم عندما اجتمعوا مساء يوم
بقهوة التوتة — وقد سميت كذلك لوقوعها تحت أفرع شجرة توت — قرعوا
القدر واضحا فى وجه الرجل الذابل . وسأله صاحب القهوة :

— ما لك يا ليثى كفى الله الشر ؟

فأجاب العجوز متنهدا :

— المنحوس يجد العظم فى الكبدة !

تطلعت إليه الرعوس من فوق الجوز وأقداح القرفة والشاى فقال باقتضاب

ذى معنى :

— نعيمة !..

— ما لها ؟.. حصل من الحملى عيب ؟

فهب الرجل رأسه المعمم بلاسة منقطة وقال :

— لا دخل للحملى فى هسى ولكن قابلى الأعور فتوة دعيس بلطف غريب

ثم قال لى إنه يطلب القرب فى نعيمة !

تجلى الاهتمام فى الأعين مشوبا بانزعاج ثم سأله سائق كارو :

— ٨٦ —

- وماذا قلت له ؟
- ارتبكت .. وبكل صعوبة قلت إن فاتحتها مقروءة مع الحملى فصاح :
- الأعور يجيبك بنفسه تقول له الحملى !؟. الحقيقة أنا انذعرت ..
- ثم !؟
- فامتألت غضون وجهه بالقرف وهو يقول :
- مددت يدي وأنا لا أدري وقرأت معه الفاتحة !
- وفاتحة الحملى ؟
- قابله ، واعترفت له بوكستي فحزن الولد الطيب ولكنه لم يتكلم ثم ذهب ..
- تبادلوا النظرات فى صمت ارتفعت فى رحابه قرقرة الجوز فقرر صاحب القهوة أن يخفف عن العجوز الألم فقال بأريحية :
- لا لوم عليك ، أى واحد منا فى مكانك يتصرف كما تصرف ، صل على الهادى وهون عليك !
- فضرب العجوز حجره بقبضته هاتفا :
- ولكن المصيبة لم تقف عند هذا الحد !
- فتساءل صاحب القهوة ذاهلا :
- وهل يوجد ما هو شر من ذلك !؟
- بعد فاتحة الأعور بساعتين وجدت جعران فتوة الحلوجى أمامى !
- يا ساتر يا رب ، وماذا أراد ؟
- نعيمة أيضا !
- وضرب صاحب القهوة كفا بكف ثم رفع رأسه إلى سقف القهوة يخاطب السماء فقال العجوز :
- اعترض سبيلى كالقضاء والقدر ، لم أدر ماذا أقول ولا كيف أتصرف ،

ثم اضطررت أن أعترف له بفاتحة الأعور !

— يا أرض احفظي ما عليك ..

— قال لي يا مخرف .. يا أعمى .. أقول لك جعران تقول لي الأعور ١٩.

الحقيقة أنا اندعرت ... ومددت يدي وأنا لا أدري وقرأت الفاتحة !

— وفاتحة الأعور ؟

فقال العجوز في انهيار تام :

— هذه هي المصيبة فأغيثوني ..

وسرعان ما أدركوا أن المصيبة إنما هي مصيبة الفرغانة وأن الخراب عاد يهدد

عظفتهم . وبحوثوا جميعا عن حل حتى قال مقرئ أعمى :

— لا يمكن أن تتزوج من الاثنتين فهذا محال ، ولا يمكن أن تتزوج من واحد

دون الآخر فهذا هو الموت ..

ثم خلع العمامة وحك رأسه طويلا دون أن يوفق إلى اقتراح حل فقال يباع

الترمس :

— فلنتزوج سرا من الحملى ..

فقال كثيرون في وقت واحد :

— ولا أبو زيد الهلالي نفسه يمكن أن يتزوجها الآن ..

ولما أجهد التفكير رعوسهم عبثا قال المقرئ :

— ادعوا معي : يا كريم الألفاظ نجنا مما نخلف ..

وانتبه الناس في الصباح على حركة غريبة في وكالة مهجورة بالعطفة .. رأوا

جماعة من البنائين والتجارين والعمال يعملون بهمة في الوكالة ليعدوها حياة

جديدة . وثبتت فوق المدخل لافتة كبيرة بعنوان « نقطة الفرغانة » . وجاء

عساكر وضابط فمشغلوا المكان الجديد ، وتجمهر الناس أمام النقطة فقال لهم

عسكري عجوز :

— الحكمدارية غضبانه .. ولا بد أن تنتهى الفتونة !

وقال البعض أن الله قد استجاب لدعائهم ولكن الظمأنينة لم تدخل قلوبهم . كل ما أحاط بهم أقنعهم بأن الفتونة أقوى من الحكومة . لم يروا طوال حياتهم شرطيا يتحدى فتوة على حين أن الفتوات يتحدون القانون في كل ساعة من نهار أو من ليل . ولم ينس أحد كيف أن مأمور قسم الظاهر استعان يوما بجيران فتوة الحلوجى على تاجر مخدرات يونانى متمتع بالحماية الفرنسية عندما علم المأمور بأن اليونانى يهدده بالقتل . كيف يتأتى بعد ذلك لهذه النقطة البوليسية الصغيرة أن تقضى على الفتونة !؟

وخرج الضابط الشاب بنجمته المذهبتين وشرطه الأحمر . وجلس على كرسى خيزران جنب مدخل النقطة ثم أرسل شرطيا إلى قهوة التوتة ليأتى له بنارجيلة . كان فى الخامسة والعشرين . رشيق القوام غليظ القسما ، ليس فيه ما يلفت النظر سوى رأس كبير مفضل الشعر كأنه كتلة صوانية مصفحة . نظر إلى المتجمهرين وقال ببساطة غريبة :

— محسوبيكم عثمان الجلالى .. لا تخافوا .. الحكومة معكم ..

فتوددوا إليه بابتسامة بلهاء ولم ينس أحد بكلمة فعاد يقول وهو يتناول خرطوم النارجيلة :

— عيب أن يعيش الرجال كالنسون ، لا تمكنوا أحدا منكم ...

ولما لم يجد بادرة تشجيع واحدة قال بشيء من الحدة دل على نفاذ صبره :

— ومن يتستر على مجرم سأعامله كمجرم ..

ورمشت أعينهم فى ارتباك ثم تفرقوا تباعا ، كل يلوذ بالسلامة . وتجول الضابط فى الحى مستطلعا يتبعه بعض العساكر . طاف بدعيس كما طاف بالحلوجى . وطوقته الأبصار حيثما ذهب ، من النوافذ والمقاهى والأركان ارتطمت به نظرات التوجس والسخرية والحنق . ومر بالأعور فتجاهله ، ومر



قال لي يا مخرف .. يا أعمى .. أقول
لك جعيران تقول لي الأعور!؟ ...

بجعران فنجاهله ثم أطلق ضحكة مجلجلة . ولبت عثمان هادئا طيلة الوقت ..
وأدرك الجميع أنه يستعرض هيئة الحكومة فعزم جعران على أن يدهمه بالرد
الحاسم . وعند أصيل اليوم نفسه نشب عراك دام بين الحلوجى ودعبس فى
خلاء الدراسة انتشرت أنباؤه كاللهب فى وكالة خشب . وارتعد قلب الليشى
الضعيف وسابت مفاصل الفرغانة . ونصح كثيرون الأب بأن يزوج ابنته من
جعران فهو الأقوى على أى حال ، وخراب أهون من خراب .
وفى صباح اليوم التالى ظهر الضابط فى الحارة مرتديا جلبابا كسائر أهل
العطفة !. لم يصدق الناس أعينهم أول الأمر ولكن هويته تأكدت بصوته
المعروف حين ارتفع قائلا :

— من كان يخشى البدلة فقد خلعتها والآن فليات إلى الفتوات إن كانوا حقا
رجالا !

وابتعد عن النقطة وحده دون أن يسمح لعسكرى واحد بأن يتبعه ولكن
تبعه الذاهلون من الرجال والنساء والصبية . ومضى إلى الحلوجى بثبات لم
يعرف عن أحد قبله حتى وقف أمام قهوة بندق حيث يوجد جعران بين صحبه
وتابعيه . وقال عثمان بهدوء ولكن بوجه تتطاير من عبوسه النذر :
— أمس تمديد الحكومة ، ها أنا بينكم وحدى أطالب بنصيبى من التحدى
فالجدع منكم يتقدم ؟

ورقص شاب يدعى عنية ببطنه فى وقاحة مزرية وهو على بعد أذرع من
الضابط فمال هذا نحوه بغتة ولكمه فى بطنه لكمة شديدة سقط على أثرها
بلا حراك . وذهل الجميع لجرأة لم يتوقعها أحد على حين تراجع المتفرجون عن
منطقة الزلازل . واستقرت الأبصار على جعران وهو متربع على أريكة متلفعا
بعبائه . ولأول مرة نظر جعران فى وجه الضابط عثمان ، ثم قال :
— أنت غدرت بصاحب لى بلا سبب ..

فصاح عثمان :

— استحق التأديب فأدبته وسيأتى دورك فى الحال ..

قال جعران بوجه مشوه بالندوب :

— أنت شباب .. اذهب من أجل خاطر أهلك ..!

فصاح عثمان :

— قم إن كنت رجلا وتقدم ...

ولم يتحرك جعران استهزاء فاقترب عثمان منه خطوات وسرعان ما تكتل

الأعوان حول رجلهم وأمامه فقال الضابط ساخرا :

— أ رأيت أنك تختبئ وراء جدار من الأتدال ؟

وهتف جعران فى رجاله :

— ابعدوا ..

فتفرقوا بسرعة كالحمام فى أعقاب طليقة . ووثب جعران إلى الأرض وكان

ربعة مدج الجسد غليظ الرقبة ، ثم تساءل :

— أين عساكركم ؟

فقال الضابط بحنق :

— سأضربكم بالطريقة التى تضربون بها الناس ..

وبمفاجأة صاعقة لطم جعران لكمة مهينة فصرخ هذا من الغضب وانقض

عليه فاشتبك فى صراع ميمت . تلك كانت لحظة مذهلة لم تنسها الحارة حتى

اليوم . كالصراع الذى يروى عن الفيل والتمر . وكانت فاصلة فى تاريخها كله

فتغير مجراه إلى الأبد . وقرأ كل فتوة من أعوان جعران بل ومن رجال الأعور

مصيره فيها .

وأراد جعران بكل وحشية فى دمه أن يعصر عثمان بين ذراعيه الحديديتين

ولكن الضابط اعتمد على خفة الحركة واللكمات وهو فن لم يعرفه جعران

أبدا . وأصابت اللكمات فكى عدوه وصدره وبطنه وأنفه المعوج فصرخ في جنون الغضب :

— ملعون الجحيم إن لم أشرب من دمك !

وصاح الرجال الذين منعتهم تقاليدهم من الاشتراك في المعركة :

— الموت .. الموت .. يا معلم .

وارتفع الصياح والصراخ والصوات . وتجمهر الحى كله تحت القبو الفاصل بين الحلوجى والفرغانة . ووقفت نعيمة ترتجف من الانفعال ، قابضة على يد أبيها بعصية ، وهى تصف له ما يقع مما عجزت عيناه الكليلتان عن رؤيته .

ودار رأس جعران بالضربات المنهالة فبطّوت حركته وتراخت ذراعاها وشخصت عيناه إلى الغيب ، وهتفت نعيمة بفرح :

— وقع الوحش على ركبتيه ..

أجل قد وقع . ثم سجد حتى انغرز رأسه فى التراب فتقوس كالذب ، ثم تهاوى على جنبه .. وارتفعت عشرات النبابت فهتفت عثمان وهو من التعب فى نهاية :

— يا نسوان ا

فتراجعوا خجولين وبعضهم يصيح فى وجهه :

— قريبا سيقرعون على روحك الفاتحة ..!

وجعل الضابط يتجول فى الأحياء مجلبابه البلدى وأسطورته الغريبة تفرش له الرمل حيث ذهب . وكلما صادف فتوة كبيرا أو صغيرا اعترض سبيله وطالبه بأن يقول على مسمع من الناس « أنا مرة » فإن تردد انقض عليه وسوى به الأرض . وفى كل يوم كانت له معارك يخوضها متحديا ويخرج منها منتصرا . ولم تمض أشهر قلائل حتى رحل الفتوات عن دعبس والحلوجى فلم يبق

إلا الشيوخ والنساء والصغار أو من غض الطرف وتبرأ من الفتونة . وشعر الضعفاء بأنهم يولدون من جديد ، ورمقوا الضابط بعين الإكبار والمحبة . ومرض عم الليثي وقد بصره تماما فقعده في فراشه ، وسرحت نعيمة بعربة الكبدة وحدها . وازدادت مع الأيام ملاحه ونضجا إلى ما كسبت من صيت لتنافس جعران والأعور عليها في الماضي القريب . وبين لحظة وأخرى انتظرت العطفة أن تزف إلى عريس مناسب . وإذا بصبي القهوة « حندس » يهمس ذات ليلة للساهرين :

— أرايتم كيف ينظر الضابط إلى نعيمة ؟

ولم يكن أحد لاحظ شيئا فعاد يقول :

— إنه يأكلها بعينه ..

ومضى كل يتابع نعيمة من زاويته ، انتبهوا إلى أنها تعسكر بعريتها عند الجدار المقابل للنقطة . وأن عثمان يسترق إليها النظرات باهتمام لا يخفى على راء . وأن عينيه ترتادان مواضع الحسن في وجهها وجسدها . وأن نعيمة تلون نبراتهما — عند النداء — بالدلال . وفي لفتاتها وسكناتها عند المعاملة جرت مناورات الأنوثة المتصدية لرجل يستحق الاهتمام . وقال قائل منهم في سهرة تالية :

— هو يأكلها وهي تود أن تؤكل ..

فتمتم صاحب القهوة :

— وعم الليثي المسكين !؟

فقال بياع الترمس :

— من يدري !؟ .. زبما طلب من العجوز القرب !

فقال المقرئ الأعشى :

— ليس شيء على الله بكثير ..

ولكن نطقت أعينهم بمدى يأسهم . وقال شاب :

— ٩٤ —

— هو أقوى من جعران والأعور معا ويا ويل من يقول بم !
ووقفت نعيمة في ضوء القمر وهي تراجع حساب اليوم وتغنى :
أنا قبله كنت هبله
ولكن تجنبها الشبان حبا في السلامة ، وقالوا لا تغنى بنت هكذا إلا للعشق !
ولم تمض ليال حتى عاد حندس يقول :
— كل شيء وضع ، رأيتهما أمس عند خلاء شبرا !
فصاح به صاحب القهوة :
— اتق الله !
— الحمد لله !، كانت واقفة أمام العربة وكان الضابط يأكل الكبدية
كالوحش ..
فقال المقرئ :
— شيء طبيعي ! كما يحدث للجميع !
فهتف حندس :
— ولكن عند خلاء شبرا ، ألا تسمع يا سيدنا ؟، وترحمت على عم
الليثي ..
ونفذ الحزن إلى الأعماق . ثم قال صاحب القهوة :
— أبوها عاجز ، ولكنه شرف الحارة كلها !
فقال بياع الترمس :
— الحارة أعجز من أن تدافع عن شرفها .
وتجهمت الوجوه بالخزي ، وعجبوا كيف يجيء ذلك من الرجل الذي
وهبهم السلام ، ولم يذوقوا للزنجبيل ولا للتبغ طعاما . وتساءل شاب :
— والعمل ؟
فقال المقرئ الأعمى :

— قل « أنا مرة » !

وانتهبت نعيمة إلى الصمت الذى يطوقها والازدراء ، وجعلت تتودد إلى هذا وذاك لتختبر شكوكها فارتطمت بجدار من الحق . ولم تخش اعتداء عليها وفتوة الفتوات قائم بمجلسه أمام النقطة ولكنها عانت وحدة غريبة . ورفعت رأسها فى استكبار ولكن نظرة عينها العسلتين خلت من الروح كورقة ذابلة . ولأقل احتكاك عابر كانت تنفجر غاضبة وتمسك بالتلابيب . وتمسب وتلعن وتصيح فى وجه ضحيتها « أنا أشرف من أمك » . وتربع الضابط على الكرسي الخيزران يدخن النارجيلة ويمد ساقيه حتى منتصف الطريق وقد امتلأ جسمه وانتفخ كرشه وتجلت فى عينيه نظرة متعالية ولكن حمد حماسه حتى بدأ أن نعيمة نفسها لم تعد توقظ مشاعره ، والذين لم ينسوا فضله رغم كل شيء تنهدوا قائلين :

— المكتوب .. مكتوب !

ولم تعد نعيمة تمكث فى العطفة إلا أقصر وقت ممكن ثم تسرح فى الأحياء ولا تعود إلا مع الليل . ولأنها ممتعضة دائما مكفهرة ومتوثبة للشجار دائما فقد قست ملامحها وبردت نظرتها وطبعت بطابع الجفاف فركضت الشيوخوخة نحوها بلا رحمة ..

وحتى سحرها الذى أطاح برأس الضابط قد بطل أو هذا ما بدأ للأعين المستطلعة فتهايمست به أركان التوتة ..
وفى لحظات الصمت ترتفع قرقرة النارجيلة فى العطفة الخائبة الضوء كسلسلة من الضحكات الساخرة ...

الرماد

(بيت سيء السمعة)

حسن السماوى شخص يثير الحق . ولا يشذ عن هذا الرأى فيه أحد فى إدارة الحسابات بشر كنا . وهو قصير القامة كصبي ولكنه عريض الصدر كمصارع ، ولونه أسمر داكن مشوب بصفرة ، ومن عينيه الصغيرتين تطل نظرة غير مأمونة ، وفضلا عن ذلك فهو قريب المدير العام . وطبيعى أن نشعر بأنه عين علينا ، وألا نرتاح إليه لخشونة طبيعه ، وأن نضيق به لتمتعه بكافة أنواع المكافآت التشجيعية بلا جدارة ، غير أنه يحظى بالمجاملات فى خير أحوالها . وكان مولعا بسحر الكاتبة على الآلة الكاتبة . ظريف جدا أن ترى جلفا وهو يجب . أن يجود وجهه المنفر بابتسامة رقيقة ، أن يرق صوته الغليظ وهو يهمس لها بكتابة ميزان الصرف اليومى ، وكنا نتابع ذلك باهتمام ما بعده اهتمام . ومع أننا تمنينا أن يعذبه الحب لعله يهذهه إلا أننا أشفقنا من أن يفوز حقا بسحر ، الجميلة الرقيقة الواعدة بكل خير فى مجالى الأنوثة والعمل . وثمة لحظات لا يكون بينهما حديث مما يمليه العمل فيسترق إليها نظرات حمراء من فوق استمارات الصرف ، وقد يتصبب عرقا ، أو ينال منه الإعياء فيرتد عنها بنظرة خاملة . ويوما همس جارى فى أذنى بنبرة ذات مغزى :

— آه لو رأيت سحر وهى تبتسم خفية ؟

خطفتم نظرة من سحر وهى عاكفة على الآلة الكاتبة وأصابها الخضوبة الأطافر تعزف عليها بنشاط ، ثم قلت متأسفا :

— نعمة لا يستحقها !

فهبز رأسه نفيا وقال :

— ليس هذا ، ولكنه برهان !.

وعجبت . برهان موظف جديد التحق بالخدمة منذ أسبوعين فقط ، شاب :

ممتاز حقاً ، ولكن كيف أحرز هذا النجاح في هذه الفترة القصيرة ١٩ . ورحت أراقبهما في لحظات الفراغ حتى لمحت ابتسامة يتبادلانها . لا شك في معناها . وتوقعت أحداثاً . وانتقل الخبر في سرية تامة من شخص لآخر حتى استقر عند رئيسنا الكهل الذى يدنو من سن المعاش . ولم يعد الأمر تسلية فحسن السماوى ليس جلفاً فقط ، ولا قريباً للمدير فحسب ، ولكنه أيضاً من أقاصى الصعيد ، من أرض عرفت بأنها ترتوى بدماء البشر ، فذهبنا فى التخمين كل مذهب .

ومرة اهتزت الإدارة بصوت حسن السماوى وهو يرتفع بحدة كأستنان المنشار قائلاً :

— الحكاية أن عقلك ليس فى رأسك !

وانتهت صوبه الأنظار من جميع الأركان فإذا به متحفزاً فوق مقعده يرمى بنظرة حاقدة برهان الواقف أمام مكتبه .
وقال الأخير بصوت المعتذر :

— هفوة لا خطورة لها ، والاستمارة لم ترسل بعد إلى المراجعة !

فصاح السماوى :

— هفوة أو جريمة هذا تقديرى أنا لا أنت ، الحقيقة أن عقلك ليس فى رأسك !

ورمى بالاستمارة بصورة تدعو إلى الاستفزاز ثم صاح بالشاب وهو راجع إلى مكتبه :

— هنا شركة لا تكية !

اصفر وجه برهان من التأثير ومضى يعيد تحرير الاستمارة لكن أثر الهجمة الحاقدة انعكس على سحر بدرجة أشد فيما خيل إلى ، وضح تماماً أن سرعتها المألوفة فى الكتابة تعثرت ، وأنها تمعن النظر فى الكلمات ولكنها لا تقرأ شيئاً .

ووضح كذلك أن السماوى رأى شيئاً رابه أو حطم آماله . ولعله ضبطه قبيل انفجاره بثوان فهو لا يكتفم انفعالا ، ولكن هل يظن أنه بالغ مراده بالقوة ؟! . وأخذ يطاردها فى الطريق كما قال الرواة . ورئى وهو يحادثها فى محطة الأوتوبيس . ولم ندر بطبيعة الحال كيف ينتهى عناده . وتعلقنا جميعا بأمل واحد آمنا بأن به وحده تتحقق العدالة الإلهية فى إدارتنا . وقال جارى :

— ألم تعلم ؟، لقد قابل عمها وهو ولى أمرها ليطلب يدها ..

سألته بلهفة :

— والنتيجة ؟

— الاعتذار .

ثم مستدركا بفرحة غير خافية :

— فشل فى البيت بعد فشل فى الطريق ..؟

وبات غرام السماوى مشكلة إدارتنا . وزاد طبعه سوءا على سوء . عامل برهان معاملة شاذة اتسمت بالاستفزاز والتحدى والتربص حتى آمن الشاب بأنه لا مستقبل له فى شركتنا . أما معاملته لسحر فجرت على أسلوب مضطرب مذبذب ، فتارة يعاملها بفضاظة ويغلظ لها فى القول ، وتارة يستميلها برقة وعطف ، ثم يعود إلى الأولى ، ولا يستقر بحال على حال . وكلما زاملت الصبر أحرقه الحقد وخنقه اليأس . وقال مرة دون مناسبة أذكرها :

— عندنا تعامل المرأة كالحيوان ولذلك يقال عنا أننا خير من يفهم النساء !

ولم تسكت سحر فقالت بسخرية :

— هذا عندكم !

وضحكنا جميعا حتى هو ابتسم ابتسامة صفراء ولكنه عاد يقول :

— صدقونى إننا نعاملها بما تستحق !

وعرف أن برهان يسعى إلى الانتقال إلى شركة أخرى وأنه من غير المستبعد

أن تمضى سحر في أثره . وذات صباح لاحظنا أن برهان لم يحضر . ومضى النهار دون أن نتلقى بلاغا باعتذاره كالتبع . وكذلك مضى اليوم الثاني . وفي اليوم الثالث جاءتنا رسالة تبئنا بوجوده في المستشفى للعلاج حيث وقع عليه اعتداء أليم . وزرناه جميعا . وجدناه في جناح الجراحة يجلس الذراع والساق ملفوفا بالأربطة البيضاء لا يبدو منه إلا عينان خائبتان . وسرعان ما أمرنا بمغادرة الحجرة فلبثنا مع شقيقه في الاستراحة وقد تملكنا شعور بالرهبة والخطورة . ولم يكن أدل بأقواله بعد ولكن شقيقه أخبرنا بأن مجهولين اعتدوا عليه بالعصى وهو راجع إلى بيته ليلا ثم لاذوا بالفرار دون أن يتعرف على شخصياتهم أحد . والراجح أنهم كانوا من حملة الجلاليب وأن الاعتداء والهرب كانا مفاجأة صاعقة وأن الظلام كان كثيفا آخر الليل ، هكذا قرر الشهود القلائل . ومع أن أفكارنا تلاقت عند ظن واحد إلا أن أحدا لم يجهر به بسبب وجود حسن السماوى بيننا . وقد علق على ما سمع قائلا :

— هذه حال من الفوضى لم يسمع عنها من قبل ..

ثم سأل شقيق برهان :

— أله أعداء ؟

فنفى الرجل أنه يعرف له أعداء وأمل في مزيد من الوضوح عندما يستطيع برهان أن يدلي بأقواله . وعدنا جميعا واجمين وقد احمرت من البكاء عينا سحر .

ولما أدلى برهان بأقواله استدعى حسن السماوى إلى التحقيق . وبدا أنه استبشع التهمة بكل قوة . واستمرت التحريات طويلا ولكنها لم تسفر عن شيء . وكان على برهان أن يبقى في المستشفى طيلة شهرين أو أكثر . وسألنى جارى ممتعضا :

— ما جدوى هذه الحياة ؟

وحل بإدارتنا وجوم كتيب مشحون بالسخط الصامت ، أكده باستمرار وجود سحر بيننا . وبطريقة أو بأخرى أعلنت وجوهنا وألوان سلوكنا عن باطننا . ولم نخرج في معاملته عن حد الأدب والمجاملة ولكن تجهم أرواحنا حاصره بغضب بشرى رهيب . ونزل عن كبريائه فجعل يياسطنا في الحديث أو يضاحكنا لأوهى مناسبة كأنما لسبر مدى ظنونه ومخاوفه فكنا نجاريه في تكلف وسرعان ما يسيطر الصمت . ولم يعد يتحملنا فهتف مرة دون مناسبة ظاهرة :

— أنا لا أخشى أحدا ولكنكم مخطئون !

وتساءل رئيسنا في دهشة :

— ماذا تقصد يا سيد حسن ؟

فقال بعصبية :

— أنت تعلم وهم يعلمون ولكنى لا أخشى أحدا !

وتضاعف حنقنا عليه وتمنى بعضنا أن يراه جثة هامدة . وبدوره قاطعنا ولكنه كان إذا اشتبك معنا في حديث بسبب العمل تحدانا بجده أو بسخريته . وبمرور الوقت بدا كأنه قدر على تجاهل عواطفنا . بل وعاد إلى التقرب من سحر بالالتسامح الكريمة أو الكلمة رغم أنها كانت تنصدى له في نفور متصلب كالديك المتحفز . ونجح في امتلاك زمام نفسه وجرت حياته بصورة طبيعية شهدت له بقوة الأعصاب وأخبرني جاري — نقلا عن سحر نفسها — أنه قال لها أنه يرىء مما تظن ، وأن نقطة ضعفه الوحيدة أنه يجبها وأنه مصمم على أن يتزوج منها ! . والظاهر أنه لم يظفر بأية استجابة إذ صبحنا يوما بأن سألنا :

— هل قرأت الحكاية ؟

وراح يقرأ في الجريدة نبأ حادثة وقعت في المنيرة إذ قتل شاب جارته بعد أن يمس من جيبها ! . وكنا قرأنا الخبر ولكن إعادته على أسماعنا بلهجته الصعيبية

المتشفية أثارتنا إلى أبعد الحدود . أدركنا أن إفلاته من التهمة زاده على عكس المتوقع فجورا ، وأنه من طبيعة شرسة لا تقف عند حد . ماذا يقصد بتلاوته ؟ . ومتى تدركه العدالة التي لا تتصور أن تهمل أحدا من الطغاة ؟ .
وقلت معلقا على الحادثة :

— أهلك الفتاة وأهلك نفسه !

وقال رئيسنا الكهل :

— إني أعجب كيف يزهق إنسان روحا بشريا !؟

فأجاب السماوى متحكما :

— ذلك أنك لم تعرف الحب !..

واستقرت إلى سحر نظرة فرأيتها منكبة على العمل ولكن بوجه مكفهر . وكأني أدركت للصواعق والزلازل والبراكين معنى جديدا لأول مرة . ورفع الغطاء عن وجه زميلنا برهان معلنا عن منظر لا ينسى . تحطم عرنين الأنف ، واختفت قطعة من شفته السفلى عند الثيتين . وتركت الخياطة الطبية بوجنته اليسرى طابعا كأثر الاحتراق . وفي كلمة ضاع بها شبابه كأن لم يكن . وعاد إلى عمله محطم النفس فملاً قلوبنا بالشجن . وما عثم أن غادرنا إلى عمل آخر . ولبث حسن مصرا على هدفه لا يثنيه عنه صدأ أو يأس . وكثيرا ما كانت سحر تضيق بملاطفاته حتى صاحت به مرة وهي تتسلم منه رسائل ومذكرات :

— لا تحدثني هكذا من فضلك !

والفتتنا نحوها بوجوه غير متسامحة فراجع قائلا :

— آسف ، أنت لا تفهمين قصدي !

فمضت عنه وهي تقول بتحد :

— أنا لا أخشاك .. لا أخشى شيئا !

ولكن شيئا لم يكن ليصرفه عن التعلق بها . وتساءلنا بقلق هل نفاجا بما ليس

في الحسبان ؟ وناقشنا الموضوع حول مائدة الغداء بمنزل رئيسنا الكهل .
سألت :

— هل يقدم على قتل الفتاة ؟

فأجاب جارى :

— إنه لا يتورع عن شيء ..

وإذا بزميل يقول :

— أخشى أن ينتهى بها النضال إلى القبول !

— القبول ؟!

— لم لا ، إنه لا يريد أن ينهزم والمرأة كما يقولون لغز !

وسألت رئيسنا عن رأيه فأجاب :

— إني أو من بالله ويتجدد إيماني به عند كل صلاة ..

فسألته :

— وهذه الفوضى ؟

فكان جوابه أن ابتسم دون أن ينبس ثم قدم لى تفاعحة !

وبدا حسن السماوى فيما تلا ذلك من أيام هادئا ، أو راضيا ،

أو مستسلما ، كأنما قد انتهى من نضاله إلى خاتمة . ويوما قال لنا :

— حضراتكم مدعوون لحفل خطوبتي !

ودق قلبى . ولا شك أن سؤالا واحدا محيرا دار برعوس الجميع . وجعلنا

نختلس النظرات إلى سحر ونعاني حزنا كاليأس من مصير الإنسان . والتفت

السماوى نحو سحر أيضا ، وابتسم ، ثم هز رأسه كالمسائل ، فابتسمت

بدورها وقالت :

— بكل سرور ولكن أرجو أن تدعو برهان أيضا ليوصلنى عند نهاية الحفل



.. وكثيرا ما كانت سحر تضيق بملاطفاته حتى صاحت به مرة
وهي تتسلم منه رسائل ومذكرات : لا تحدثني هكذا من فضلك !

— ١٠٦ —

إلى البيت ..
وتنهدت قلوبنا في ازتياح عميق ...
واختلست منه نظرة بعد أن تحولت عنه الأعين فرأيت الوجه الأسمر الداكن
يقطر ياسنا كالموت ..

انختام

علام يسرى — مراقب عام الوزارة — فى غاية من السعادة . استدعاه
الوزير وقال له :

— اتخذ فوراً إجراءات تعيينك وكيلاً مساعداً للوزارة ..
وقام من مجلسه أمام مكتب الوزير فأنحنى امتناناً ورأسه يدور من الدهول ثم
قال :

— ما أعجزنى عن الشكر ولكن أرجو أن أكون عند حسن الظن بى ..
فقال الوزير :

— أنت رجل كفاء ، أما سمعتك الطيبة فحقيقة أجمع الناس عليها ..
ووجد علام يسرى نفسه فى غاية من السعادة فامتلاً حبا لكل شىء ورضى
عن كل شىء . وكانت له ابنة وحيدة فى العشرين من عمرها ومن خريجات
الجزويت ، وقد تقدم لخطبتها أخيراً قاض شاب ، وبذلك وضح تماماً أن رسالته
فى الحياة تم على أكمل وجه يحلم به إنسان . وجاءه مدير مكتبه بأوراق العرض
ثم قال عندما هم بمغادرة الحجرة :

— عبد الفتاح حمام ما زال يلح فى طلب المقابلة !

فقطب المراقب العام قائلاً :

— وقتى ضيق كما ترى ، أسأله عما يريد ، وإن كان لديه طلب فحوله إلى

جهة الاختصاص ..

— ولكنه يلح فى طلب المقابلة دون ذكر أسباب ، وقد طردته أكثر من مرة
من مكتبى ولكنه يعود بإصرار ، ويكرر أن لديه ما يقوله لسيادتك شخصياً ..
واضطر إلى أن يحدد له وقتاً للمقابلة وهو كاره . وجاء عبد الفتاح حمام
يسير فى خطوات متهيبية وهو غاض البصر ، وأنحنى بإجلال وهو يقول :

— ١٠٩ —

— صبحك الله بالسعادة يا سيادة المراقب ..

ولفت نظر المراقب بقصر قامته وبروز صدره بروزا غير طبيعي ولونه الشاحب وشعر رأسه الأسود الغزير . وسأله وهو يدارى غيظه :

— لماذا تصر على تضييع وقتي ؟

وتيمناً عبد الفتاح للكلام فأضاع ثواني بارتباكه فهتف المراقب العام :

— متى تجود يا ترى بالكلام ؟

فاشتد ارتباك الشاب كما تجلي في احمرار وجهه وقال بعجلة واندفاع كأنه يقذف بنفسه في الماء في أول تدريب يخوضه :

— أنا موظف ملفات الخدمة بالمستخدمين ، وقد رجعت إلى ملف

سعادتك لمناسبة إعداد البيان التمهيدى للتعين الجديد ، مبارك يا فندم ا، الموقف أنساني ما كان يجب أن أبدأ به ..

وازدرد ريقه متوقفا عن الكلام فتساءل المراقب العام :

— ألهذا تطلب مقابلي ؟!

— كلا يا فندم ، ولكنى بالرجوع إلى ملف سيادتك اطلعت على شهادة

الميلاد ..

آه . شهادة الميلاد !. وانتزعه الماضي من حاضره مجذبة واحدة قاسية ولكنه

لم يصدق . وتساءل ببرود :

— نعم ؟

— اطلعت عليها فوجدت بها شيئا غير طبيعي ..

إذن هو ذلك !. لا يمكن أن يصدق . ولكنه حقيقى كجثة مطمورة

اكتشفت فجأة . وقاوم من خلال شعور بالإعدام فتساءل :

— ماذا تقصد ؟

فقال عبد الفتاح بشيء من الهدوء لأول مرة :

- يوجد « تحوير » في الشهادة !
- لا أفهم !، لعله تصحيح أو شيء من هذا القبيل ؟!
- من يدقق النظر لا يشك أنه ..
- وخرقت أذنه الكلمة غير المنطوقة . وشعر بياس كاللوت . أما الآخر فقال :
- رأيت أن أرجع إلى سيادتك قبل أن أكتب مذكرة عن الموضوع لمدير المستخدمين !
- على أى حال يجب ألا ينهار أمام خصمه ! لقد قضى عليه ولكنه يجب أن يتماسك وأن يتجلد فمن يدرى ؟!. واكتنظ قلبه بالكراهية ، ولكن ما الحيلة ؟. واليوم موعد اجتماع لجنة الميزانية ويجب أن يبدو كل شيء طبيعيا . وسأله :
- هل دقت النظر ؟
- نعم !، كان يمكن أن أكتفى بمراجعة صحيفة الأحوال ولكنى إخلاصا منى لعملى أراجع الوثائق الأصلية ، ولا أدرى كيف وقع بصرى على ...
- آه إنه لا يدرى كيف !. وفاض قلبه بالياس والكراهية ، لولا الترقية المنتظرة لرقدت الشهادة فى أمان حتى نهاية الرحلة الوشيكة ، على أى حال لا يجوز أن ينهار أمام عينى خصمه .
- وسأله :
- وبعد ؟
- قلت أرجع أولا إلى سيادة المراقب العام !
- إنى أشكر لك تصرفك ولو أن ..
- ودق جرس التليفون فإذا بوكيل الوزارة يطلبه فنهض منزعجا خشية أن يخونه صفاء الذهن الضرورى للمقابلة . وقال من خلال عالم مقوض الأركان :

— اسمع يا بنى ، أنا الآن مشغول جدا فلنؤجل الحديث ، وعندى لجنة ميزانية بعد الظهر فموعدنا الغد ، إن أقوالك غريبة وغير مفهومة لى ألبتة فلنؤجل مناقشتها إلى غد ..

وفى الطريق إلى مكتب الوكيل غاب تماما عما حوله . وتطلع إلى الأمام بنظرة ذاهلة منقبا عن القوة المدمرة الساخرة . متى يغمض له جفن ؟ . وتمنى أن يتغيب عن لجنة الميزانية ليصفى حسابه مع معذبه ولكنه جفل من مجرد التفكير فى ذلك . إنه اعتراف خطير سيعجل بالقضاء عليه . ولكن هل انتهى حقا ؟! . وغادر الوزارة عقب مقابلة الوكيل . استقل سيارته الأوبل التى يسوقها بنفسه وعند خروجه من باب الوزارة لمح عبد الفتاح حمام واقفا أمام محل صغير لبيع الفول يتناول سندويتش . التقت عيناهما لحظة ريثما انعطفت إلى الطريق . وقد خفق قلبه فى رعب حقيقى ثم اشتعل بالكراهية . لعله ينتظره ! لعله مجرم محترف . لقد انتهى حقا .

وفى البيت كان حديث الأفراح يتردد فى أكثر الأوقات . عن العريس والحفل يتكلمون ، عن الحلى والملابس والجهاز لا ينقطع الحديث . ومنى سعيدة جدا ومثلها أمها وسرعان ما ينخرط فى هومهم الممتعة ويدلى برأيه فى كل شىء . ولكنه حصن نفسه هذه المرة بقوله :

— الظاهر أنى متوعلك اليوم ، أعفونى من الكلام ومن الطعام ..!

بذلك حصن نفسه ضد الأعين المتفحصة ، وشرب كوبا من البرتقال ثم آوى إلى فراشه . وسعادة منى المتجلية لم تبرح مخيلته فعذبته عذابا ألما . وقال لنفسه بأنه لن يسمح لقوة الغدر بهذه السعادة . واستعرض فى لحظات حياة طويلة طابعها الجد والأمانة والاستقامة .

علام يسرى مثال طيب حقا فى وسط ملعون . وذلك الخطأ الذى ارتكبه منذ خمسة وثلاثين عاما ينفجر على غير انتظار كلغم منسى . وقد ارتكبه ليقبل

في المعهد وحتى لا تضع آماله هباء . لم يكن مغامرا ولا مستهترا بالمبادئ ولكن اغتاله الضعف والأمل . كان موقفا رهيبا عندما قدم أوراقه فنظرة مدققة من عين المسجل كانت كفيلا بنبذه من المجتمع . وآمن بأن جريمته قد دفنت في الملف إلى الأبد ولكنه لم ينس أنه سيغتال الحكومة في عامين من مدة خدمته . ولم يرحه ما قدم من عمل مجد واستقامة فعزم على طلب الإحالة على المعاش عندما يحل موعده الحقيقي الذي لا يعلم به أحد سواه ، أجل طالما ذكر نفسه بذلك ولعل مرض القلب الذي انتابه منذ أعوام كان نتيجة لحدة شعوره بالشوكة الخفية المنغرزة في ضميره ، وقد تسلل عبد الفتاح حمام إلى حجرته ليقوض بنيانه بلطمة واحدة وجعل يتطلع إلى فراغ الغرفة منقبا في ذهول عن القوة المدمرة الساخرة !.

وذهب إلى مكتبه مبكرا في اليوم التالي ثم استدعى الشاب إلى مقابلته وبمجرد أن رآه وهو يقترب من مكتبه في أدب كاذب وثبت في باطنه رغبة جنونية في الانقضاض على رقبتة الغائرة بين كتفيه وخنقه . غير أنه رمقه بنظرة طبيعية هادئة كأنما لم يورقه ليلة كاملة وقال :

— لنعد إلى حديثك الغريب ، الحق أنه يهمني أن أعرف كل شيء .
وجلس عبد الفتاح في خضوع وأعاد على مسمعه خلاصة ما قاله أمس ،
فسأله :

— ألا يجوز أن تكون واحما ؟

فأجاب بهدوء معذب :

— الواقع أنني لم أصدق عيني بادئ الأمر ، دقت النظر طويلا ، ولكي أقطع الشك باليقين رجعت إلى شهادة المعاملة الخاصة بالإعفاء من التجنيد فتأكد لدى أن ثمة فارقا في العمر بين الشهادتين مقداره عامان .
وساد صمت أليم غص المراقب عينيه في استسلام نهائي وهو يتأذى بنظرة



وارتمی علی مقعدہ وهو يقول لنفسه : إني مريض

— ١١٤ —

خصمه على صفحة وجهه . إنه يطالبه بثمان السكوت . وعندما ينطق الصمت بما يضمه ستردى في هوة الجريمة وهو في كامل وعيه بما يصنع هذه المرة . سيخطو الخطوة الأولى في طريق قدرة لا نهاية لها . أجل لا نهاية لها . وأسر لا قرار له . آه أما من وسيلة لدفنه لا؟ وسأله :

— وبعد ؟

ارتبك الشاب قليلا ثم قال :

— قلت يجب أن أخبر سيادتكم أولا .

— وثانيا ؟

إنه ينظر في الأرض ليخفي انفعالاته الشريرة . إنه لا يريد أن يموت ولا أن

يختفى كشيح !

— ألا تريد أن تتكلم ؟

ولما لم يسمع منه جوابا سأله بصوت غريب في نبرته :

— ماذا تريد ؟

وبصوت ضعيف أجاب :

— لا شيء إلا ما يرضيك ، لم أقصد إلا أن أؤدي خدمة لك ، أنت رجل

نبيل ، وسأترك أمرى لتقديرك !

— تكلم أرجوك ..

— أنا آسف جدا لموقفى هذا ، ولكنها .. ولكنها فرصتى الوحيدة ..

— وهى ؟

قال بضبط نفس أكثر :

— يا سيادة المراقب أنت أدرى ..

قال وهو يشعر بذل لم يشعر بمثله من قبل :

— ما ترتيبك فى الأقدمية ؟

— لا أمل لى فى ترقية بالأقدمية ، على أن أنتظر خمس سنوات ..

— وإذن ؟

فقال بجرأة أوضح :

— هنالك أكثر من طريق ..

فقال المراقب بلا وعى تقريبا :

— هذا يورطنى فى تصرفات طالما عفت عنها ..

وتبادلا نظرة انكسر لها قلب الرجل . تألم بلا حدود . إنه يسخر من تعففه

ومن حياته جميعا .

ولم يعد يطيق رؤيته فقام ماداله يده . تصافحاً ثم غادر الشاب الحجره دون أن ينال وعدا صريحاً ولكنه بدا مطمئناً كل الاطمئنان . وارتمى على مقعده وهو يقول لنفسه إنى مريض . ما بى هو مرض بكل معنى الكلمة . وعندما غادر الوزارة بسيارته لمح عبد الفتاح بموقف الأمس أمام محل الفول . وانعطف بالسيارة دون أن ينظر نحوه . غدا سيتبعه كظله وسيقع هو تحت رحمته . ودفع السيارة نحو أطراف المدينة بلا هدف وكان تلفن إلى أسرته بأنه لن يعود قبل المساء . يجب أن يخلو إلى نفسه وأن بيت فى أمره بلا تردد ودون إبطاء . أيسقط فى الهاوية أم لا ؟ . هل يسلم نفسه أسيراً مدى العمر أو يرى حلاً آخر ؟ . وكان ينطلق بسرعة غير عادية ويجاور الشاب طوال الوقت . أتخسب أنك ملكت كل شىء ؟ . أنا أقول لا فما أنت صانع ؟ . أجل نحن فى الخلاء حقاً ، كورنيش النيل ، ألا تحب هذا المنظر الخلاب ؟ . لعلك خائف ، أرايت ، كان ينبغي أن أكون أنا الخائف لا أنت أليس كذلك ؟ . لا .. لن يفيدك الصراخ . مت كحشرة . وشدت قبضته على عجلة القيادة بقوة فظيعة . ستطرح هنا وحيداً بلا أدنى أمل . ولكن ما أسخف التخيلات ! .. سيلقاك عبد الفتاح غدا لسمع رأيك الأخير . وزاد من السرعة فى شبه خلاء تام . رأيك الأخير . بالقبول مع

— ١١٦ —

الأسر أو الرفض مع الفضيحة . وفي الحالين لا يمكن أن تنسى كرامتك .
ومن غير الله يمكن أن ينتشلك من مأزقك الخانق ؟. ودعا ربه طويلا حتى
اغرورقت عيناه .

* * *

ووقع حادث أسيف في طريق الكورنيش !..
وقال المحزونون : جرى القضاء عليه وهو يترقب سعادتين : ترقيته وزوج
كريمة ..

سُوق الكانتو

خاص حسونة في سوق الكانتو متأبطا لفافة كبيرة من الورق . كانت شمس الصيف الحامية تلهب الجموع الحاشدة وقد اصطفت على الجانبين عشرات من عربات اليد مثقلة بالملايس والأوعية والأواني والأدوات القديمة . قصد حسونة عربة رمضان ولكن منعه من الوصول إليها سياج من الجلابيب والملاءات اللف ، ولم يجد صياحه في اختراق هدير صاحبه من أصوات النداءات والمساومة والسب . ورصده حتى التفت ناحيته فصرخ بأعلى صوته :

— يا معلم رمضان !

انتبه الرجل إلى مصدر الصوت فلوح له حسونة بذراعه صائحا :

— معى هدية !

وشق رمضان طريقه إليه بجهد قاس حتى بلغه ثم سأله :

— بيع أم شراء ؟

فضحك حسونة عن أنياب كالأسياخ وقال :

— ربنا لا يقطع لنا عادة ..

— ما معك ؟

— جاكته ..

وضح الاهتمام في وجه رمضان فتناول اللفافة ثم استخرج الجاكته ليتفحصها . جاكته رمادية في حالة جيدة كبيرة الحجم حتى لتصلح معظما

لحسونة . وسأله بلهجة ذات معنى :

— من أين ... ؟

فأجابه وهو يغمز بعين حمراء :

— اطمنن ..

ودس رمضان في يده ورقة من ذات الخمسة والعشرين وهم بالرجوع
ولكن حسونة تعلق بذراعه وهو يقول :
— عملي ليس نزهة ، ليس نزهة ..

وبعد دفع وجذب زمى له بخمسة قروش بحركة نهائية قاطعة ثم شق طريقه
مرة أخرى إلى عربته .

وجال حسونة في أطراف السوق فابتاع أربع سجائر ورغيفا ولحمة رأس ثم
مضى إلى جدار المرحاض العمومي فجلس في ظله ، وراح يدخن سيجارة
بهدوء مؤجلا الأكل إلى حين . شنكل ! . تخيل وجهه القاسي ورأسه المشوه
بالندوب . وارتعد جسمه الضئيل . لو شك في لحظة واحدة انتهت .

وتناول طعامه ولكن وجه شنكل سد حلقه .

وفي الليل لبد عند المنور يتصنت . وسمع صوت شنكل وهو يسأل بغلظة :

— أين الجاكنة يا ولية ؟

فأجابت المرأة :

— لم تلمسها يدي ..

— زارك أحد ؟

— أبدا ..

— خرجت ؟

— أبدا ..

— عفريت أخذها ؟

— ربنا يعلم ..

وترامت إليه دمدمة عراق فارتعد في مكمنه .

— يا مجنون .. يا وحش ..

— تعضيننى يا كلبة ؟

— يعنى أموت وأنا ساكنة ؟.. ما قيمة جاكته ؟

— يا خرابى ، فيها ما يساوى تعب عمر يا مجرمة ..

ابتعد حسونة عن المنور وهو يغمغم فى ذهول « تعب عمر » . انتقل من سطح الربع الذى يسكنه شنكل إلى السطح الملاصق له قاصدا غرفته الخشبية .
تعب العمر !؟ . ولكن كيف ! لقد فتش الجيوب جييا جييا فلم يعثر على شيء !. البطانة . أجل البطانة . ولكن كيف كان له أن يتخيل ذلك ! يجب أن يعثر على رمضان بأى ثمن . ولكن هل يرتاب شنكل فى أمره ؟ . هل يتصور أن خروفا يجروا على اقتحام عرين الأسد ؟ . إن عمره يعد بالدقائق إذا لم يحصل على تعب العمر ويرحل عن البلد ..

وغادر ربه للبحث عن رمضان . وجد سوق الكانتو خاليا إلا من شعاع خافت ينبعث من مصباح عمومى فى أقصى طرفه الشمالى . ولم يعثر له على أثر فى قهوة الجوهري ، ولا فى مجلسه بسوق الخضار. ولا فى غرزة أم الغلام . أترأه يعد النقود فى بيته ؟ . ولما لم يكن يدرى أين مسكنه فقد رجع إلى سوق الكانتو عازما على قضاء الليل فوق الطوار ليكون أول مستقبل له فى الصباح .
وجلس القرفصاء أقرب ما يكون إلى المصباح . ضيعت ثروة يا حسونة الكلب . ولكن من كان يصدق أن شنكل يترك ثروة فى باطن جاكته مسروقة !؟ . وسمع وقع أقدام تقترب فنظر نحو الظلام فرأى شبعا قادما . وعندما دخل القدام مجال الشعاع وضحت معالمه بعض الشيء فإذا به شنكل ! . ملأه الرعب فانتثر واقفا بلا وعى فعرفه الرجل ورماه بنظرة سموت قدميه فى موضعه :

— حسونة !

فقال بصوت متهدج :



لقد فتش الجيوب جيبا جيبا فلم يعثر على شيء !.

— نعم يا معلم ..

— ما لك مكموما كالزباله !

— رأسى ثقيل فقلت أنام فى الهواء ..

وصفعه كأنما يجود عليه بإحسان وسار فى طريقه . لم يصدق عينيه . وتبعه
بنظره حتى اختفى وهو لا يصدق عينيه ، كلاً إنه لا يشك فيه وإلا ما أعلن
عطفه بتلك الصفة ! . ما أعمى الخوف أليس هذا بطريقه الذى يخرقه كل ليلة
إلى سوق الخضار !؟ . وتهد فى إعياء ثم تداعى على الأرض .

واستيقظ مبكراً والحياة تدب فى السوق . وما لبث أن رأى رمضان قاذماً
يدفع عربته ، هرع إليه بلا تديرير وقال بلا تمهيد :

— ما معلم رمضان أين الجاكتة ؟

رقمه الرجل بازدرء وهو يتمتم « يا فتاح يا عليم » لما كرر الآخر سؤاله
بلهفة أحد سأله :

— لم تسأل عن شىء لا يخصك ؟

— الجاكتة يا رمضان ؟

— عليك عفريت اسمه جاكتة !، بعثها ..

— بعثها !، يا خير أسود ، بعثها يا رمضان ؟، لمن ؟

أجاب بارتباب :

— عطية الحلوانى ..

— يا خير أسود يا رمضان .

وضاق به فزقق :

— انطق !

سأله بعينين مجنونتين :

— ماذا وجدت فيها ؟

فصفعه إعرابا عن حسرته وهو يسأله بكراهية :

— ماذا كان فيها ؟

— تعب عمر !

— عمر من ؟

— شنكل !

ارتعد الرجل فهتف :

— شكل ..! تبعب لي مصيبة !

— ولكن مصيبة يبعبها أكبر .

— صحيح إنك نحس !

— البطانة يا رمضان ..

فكر رمضان يائسا ثم قال متنبها :

— لا فائدة من النواح ، انتظر الليل حتى يرجع الحلواني من حلوان ..

وقطع الكلام عندما رأى زبونا واقفا ينتظر لم يدر متى ولا كيف جاء .

وتفحص حسونة الزبون باهتمام وقلق ثم ابتعد .

وعند المساء ذهب معا إلى قهوة الجوهري فوجدا عطية الحلواني منهمكا في

عشرة دومينو . فصافحه رمضان وقدم له حسونة ثم اشتركا في اللعب .

وغادروا القهوة معا لإتمام السهرة في حجرة الحلواني فمشوا جنباً إلى جنب في

شارع الموسكى في شبه ظلام تتخلله أنوار متباعدة خافتة . وجعلا يحاوران

الشباب بجهد متكلف وهما يفكران في شيء واحد ، ودون مناسبة قال

رمضان :

— إن شاء الله تكون الجاكنة موفقة ..

فقال الحلواني وهو يتشاءب :

— ١٢٤ —

- طبعا ، ولكنها تحتاج إلى تضييق (ثم وهو يلكره ضاحكا) وتغيير لون ،
سلمتها أمس إلى عبدون الرفاء ..
- وماتت رغبتها في مصاحبته ولكنهما لم يجدا بدا من الذهاب . وغادروا
الحجرة قبيل الفجر وهما يترنحان فقال حسونة متأوها :
- فاز عبدون بتعب العمر ..
فهتف به :
- سنرى ، أنت من يوم مولدك نحس ..
- أنا في حاجة إلى النقود لأهرب ..
فقبض على قفاه وهو يسأله :
- وأنا ؟! سيظنني شريكك ..
فتخلص من يده قائلا :
- إنه لا يدري شيئا عن علاقتنا ...
- وفي الصباح ذهبوا معا إلى دكان عبدون الرفاء وهو يتأهب للعمل ، وعانقه
رمضان معانقة الخلان ثم جلس ثلاثتهم على أريكة في نهاية الدكان التي كانت
أشبه بدهليز ضيق غائص في الجدار .
- ومال رمضان على أذن عبدون رغم أنه لم يكن معهم رابع وهمس :
- لا أحب أن أشغلك عن عملك في ساعة الصبح ولكننا جئنا بخصوص
الجاكيت التي سلمها لك عطية الحلواني ...
- فسأله عبدون بدهشة :
- ما لها ؟
- هل قمت بالمطلوب لها ؟
- لم أمسها بعد ..
- تنهد رمضان وحسونة بارتياح وقال رمضان :

— تلزمتنا بعض الوقت ، دقائق لا أكثر ..

فقال الرجل بقلق :

— حد الله !.. إنها أمانة ..

— عيب يا عبدون ، ستكون عندك بعد دقائق ..

نظر إليه بارتياح ، وردد عينيه بين الرجلين ، وابتسم ابتسامة خبير ، ثم نهض إلى كومة من الملابس المعلقة في الجدار ففرها بسرعة حتى استقرت يده على الجاكتة الرمادية فزرعها وراح يتحسسها باهتمام حتى استكنت يده فوق أسفل البطانة . وحدهج رمضان بنظرة ساخرة فقال الرجل :

— أحببت أن نقوم بشغلنا بعيدا عنك ..

هز عبدون منكبائه استهانة ، ورمى الطريق بنظرة حذرة ، ثم رجع إلى الأريكة ويده تمك البطانة بخفة ، ثم استخرج رزمة من الأوراق المالية . ندعن حسونة صوت كالشهقة ، وقلق رمضان في مجلسه ، أما عبدون فبدا نهما مصمما ، وقال رمضان بلهفة :

— فلنقتسمها بسرعة قبل أن يجيء أحد ..

عند ذاك اختفى النور الهادئ الوارد من الطريق ولكنهم لم ينتبهوا لذلك . وارتفع صوت كالخوار يقول بقسوة :

— عفارم عليكم ...

تحولت الرعوس في فزع نحو الباب . وجدوا أمامهم شنكل . شنكل بكل ما أوتي من طول وعرض وكره منظر يسد الباب سدا . صاح عبدون :

— أنا عبد مأمور ، ولا تدخل لي في شيء !

وصاح رمضان :

— على الطلاق ما أعرف صاحبها !

وخرس حسونة فلم ينطق . ودخل الرجل على مهل حتى تناول الرزمة من يد عبدون المرتجفة . والتفت نحو حسونة قائلا :

— هل ظننت أن عيني غفلت عنك دقيقة واحدة ؟
فتح الرجل فاه ولكن شنكل لطمه بيد كالمطرقة فانلدق من ركن الأريكة
فوق الأرض وهو يتأوه وكأنه يتقاياً . وقال له بهدوء مخيف :

— اخنفت إن كنت تحب الحياة ..
واستدار ليغادر المكان ولكن صفارة انطلقت . وطوق باب الدكان في
ثوان بالمخبرين .

ودخل الضابط شاهرا مسدسه وهو يقول بلهجة أمرة :
— كل واحد في مكانه ..

وانقض عليهم المخبرون قبل أن يفيقوا من ذهولهم . وقال الضابط يخاطب شنكل :
— أتعبتنا أسبوعا كاملا الله يتعبك ..

وعند الظهر وقفت سيارة مرسيدس أمام القسم وغادرها رجل ربعة بدين
ذو لغد هائل . قابل ضابط المباحث فصافحه ثم جلس وهو يقول :
— جئت بناء على إشارتك ..

فقال الضابط :
— قبض على سارق جاكنتك ، ووجدت نقودك كاملة لم تمس ، وسوف
تسلمها في الوقت المناسب ولكن ينبغي أن نبقي لإتمام بعض الإجراءات .
رمى الوجيه على سيف الضابط بنظرة امتنان وتمم :

— همة عظيمة حقا !
فقال الضابط بلهجة ساخرة وهو يتفحصه بنظرة ذات معنى :
— أرجو أن تكون في موضعها !

وقلق الوجيه وتأكدت ظنون طالما ساورته ، ولكنه كان شديد الحذر ، وعليه
أن يستزيد من هذا الحذر مستقبلا . واستطرد الضابط قائلا بلهجته الساخرة :
— مبارك عليك ! المال الحلال لا يضيع !..

وجهاً لوجه

في أقصى مكان بالحديقة جلسا شبه منفردين . وطيلة الوقت تبادلنا نظرة مفعمة بالتطلع والهناء وهما يحسوان الليمونادة :

— ستكون سهرة طيبة بسينا ركس .

— والفيلم عن قصة غرامية مشهورة فهو يناسبنا جدا .

ابتسمت لتعليقه . وكان الفانوس الأنيق يبعث ضوءا هادئا فأضفى عليهما غموضا فاتنا . وسطعت رائحة الياسمين المثل من ثغرات التكهية المطوقة للحديقة الصغيرة ، ولم يكن بطرفها الآخر إلا زوجان مثلهما غارقان في التهامس . ونسمة لطيفة مشحونة برطوبة أغسطس ترددت من آن لآن .

وقال حامد :

— كالحلم ، كثيرا ما قلت ذلك لنفسى .

— هو كذلك ، لكنه حلم جميل .

منذ رأها في رأس البر في يوليو الماضى وهو يردد ذلك . بعد اختفاء خمسة عشر عاما رأها عند اللسان ساعة القيلولة . التقت عيناهما في نظرة تذكر وعرفان . وابتسما بلا حطة . تقدم منها مادا يده فصافحته . أتذكرين مصر الجديدة ؟ . نعم .. شارع الزقازيق . منذ ذلك الوقت لم أرك .

بلى ، متزوجة وخارج القاهرة أكثر الوقت . وتقابلا في الصباح التالي فعلم أنها مطلقة من عام وأن ابنها الوحيد قد ضم إلى حضانه أبيه . وغادرا المصيف في يومين متعاقبين وهما على تفاهم وميعاد ..

— ها نحن الآن نفكر فيما كان يجب أن نفكر فيه منذ خمسة عشر عاما !

فابتسمت سهام قائلة :

— القسمة والنصيب .

- وكنت أراك كل يوم تقريبا .
— أذكر ذلك .
— وكنت معجبا بك !
— ولكنك ... أعنى لم تفصح بأى سبيل عن ذلك الإعجاب .
قال بنبرة المعتذر :
— كنت وقتذاك مترجما صغيرا بالخارجية ومرشحا لبعثة .
— والعواطف أكانت محرمة على صغار المترجمين ؟
فضحك ضحكة مقتضية ثم قال :
— ليس من السهل التحدث عن خيال الشباب !
— أما أنا فقد انتظرت حتى ضقت بالصمت .
— وبلغت أنا الأربعين ولم أتزوج .
بعد تردد وهي تبتسم :
— لماذا ؟ ... مجرد سؤال لا يتضمن أى اعتراض بطبيعة الحال .
— سرقنى الوقت ، كثيرون يمضون هكذا ..
اتجهت عينها لحظات إلى العاشقين فى الطرف الآخر للحديقة . ناضجة
تماما وهو من حسن الحظ يفضل ناضجات نصف العمر .
— وعندما قابلتك بعد خمسة عشر عاما من الاختفاء وجدتك مطلقة
وحزينة لحرمانك من ابنك ، فتذكرت بقوة غير متوقعة أننى بلغت الأربعين
دون زواج وقلت لنفسى لعل هذا اللقاء قد تم ليصبح أكثر من خطأ .
وترامت نشرة أخبار الثامنة والنصف من مقهى بالسوق وراء محل يبجل
فاقتحمت مجلسهما الهادئ المعبق بالياسمين . وتساءل حامد :
— هل الحرب حقا وشيكة الوقوع ؟
فقالت باستهانة :

(بيت سبى السمعة)

— ١٣٠ —

— هكذا يقولون منذ أن تولى هتلر الحكم .
— صدقت ، المهم أن نتزوج في أقرب وقت ممكن .
عكست عيناها نظرتين متعاقبتين ، الأولى مشرقة والأخرى غامضة دارتها
بابتسامة فقال :

— لا شك أنك فكرت في ابنك .
— أنت تفرؤني جيدا ولكني على الحاليين لن أراه إلا نادرا .
— يمكن الاتفاق على ذلك مع زوجك .
— لن يذعن ، إنها العداوة العمياء .
طالعتها بنظرة إنكار فاستطردت :
— أكثر أعوام المعاشرة احترقت بنار العداوة . واستمرت بفضل تعلقي
بابني ، حتى أدركني اليأس ..
— سينسى الرجل العداوة مع الزمن .
— ليس هو بالرجل الذي ينسى .
— أمر مؤسف حقا .
— المهم أن تفكر طويلا قبل ...
— فكرت طويلا ثم اخترتك عن اقتناع وحب .
قالت برضى :

— الواقع أنى أشعر بغربة شديدة في بيت أختي بالرغم من أن حالتي المالية
لا بأس بها .

— إني أدرك ذلك يا عزيزي ، لكن أتسمعين ؟ هل حقا ستقع الحرب ؟
ابتسمت ابتسامة دارت بها ضيقها بقطع تيار الحديث الأول وقالت :
— لم تعد الأقوال تنطلي على !
— الحالة أخرج مما تظنين .

- أهي تزعجك لهذا الحد ؟
— إيطاليا رابضة في ليبيا .
رنت إليه بنظرة هادئة فاستطرد :
— وهي رابضة أيضا في الحبشة ، أتدركين معنى ذلك ؟
— ولكن الإنجليز ..
— الإنجليز ، إما أنهم ضعفاء كما يؤكد موسوليني وإما أنهم أقوياء كما يدعون . وفي الحالين ستعرض لأهوال الغزو .
— أنت منزعج كما لو أن الحرب ستعلن عليك أنت !، بالله خبيرني لماذا ترى أن يتم الأمر في أقرب وقت ممكن !؟
— آه .. نعم يجب أن يتم الزواج في أقرب فرصة لأنني عرضة للنقل إلى الخارج في أول حركة قادمة .
— عندك فكرة عن المكان المحتمل أن تنقل إليه ؟
— فرنسا تصورى أن يمضى شهر العسل في باريس !
— يا له من خيال !، ولو أن ابني سيبقى في كفر الشيخ .
— سوف ترينه يوما وهو رجل كامل ، أما إذا قامت الحرب .
— لن يتم النقل . هذا كل ما هنالك ..
— لن يمكن التكهن بشيء .
— سنبقى هنا غالبا وليس في هذا ما يضير .
— آه يا عزيزتي هل تدركين معنى ضرب بلد كبلدنا بقنابل الطائرات ؟
— لماذا يضربوننا !؟ لسنا أعداء لأحد .
— سوف يتداعى كل قائم للخراب .
— لا أصدق هذا .
— لماذا ؟
— قلبي مطمئن في صدري .

— ١٣٢ —

- ما أجهل أن يطمئن إنسان في هذه الظروف !
ضحكت في رقة بالغة وسألته :
- هل عرفتني في رأس البر من النظرة الأولى ؟
— طبعاً .
- إذن لم أتغير كثيراً ؟
— أنت أجهل مما كنت إن يكن ذلك ممكناً .
- لا تبالغ ، ألم تترك سن المبالغات ؟
— الحب لا يعترف بالزمن .
- أنا لم أسافر إلى الخارج من قبل .
— باريس ، عروس الدنيا ، صدقيني .
- فرنسيتي ليست على ما أود ، ربما التحقت بمعهد مناسب .
— أما إذا قامت الحرب ونحن في باريس ؟
— الحرب أيضاً !!
- لتقم الآن إذا كانت تنوى ذلك .
— في باريس يمكن أن نرحل إلى بلد محايد كسويسرا .
- كل شيء يتوقف على ما يصيب وطننا هنا .
— أنا مطمئنة كما قلت لك ، ولكن لماذا تقوم الحروب ؟
— العداوات ، الألمان يستعدون لهذا اليوم منذ أكثر من عشرين سنة .
- عشرون سنة ، إذن كيف يمكن أن تنسى عداوة ؟
وهو يضحك :
- الناس لا ينسون العداوات ولكن من حسن الحظ أنهم يتزوجون رغم ذلك !
- غادرا الحديقة وهي تتأبط ذراعه ، . وشقا سبيلهما بين الموائد في محل بيعجل

الداخلي حتى انتهيا إلى شارع سليمان . ورغم الحرارة المرتفعة جرت نسمة الليل وومضت في السماء مئات النجوم فوق همامات العمارات الشاهقة . واقتربا في طريقيهما من قهوة ليموند . كان يقف عند مدخلها ماسح أحذية مائلا إلى الجدار في تراخ ، يقبض بيد على صندوقه ويعبث بالأخرى بشارب نائر غليظ كأن شعيراته قدت من أسلاك حديدية . ربة ملء ، يرتدى فوق جلبابه سترة محلاة ببطاقة خضراء تحمل اسم القهوة بأحرف بيضاء . وظهر عند رأس عطفة جانبية ملاصقة لجدار القهوة رجلان مجلببان . نادى أحدهما ماسح الأحذية قائلا :

— يا عم .. من فضلك ..

استقام الرجل في وقفته ثم اتجه نحو الرجلين الذين وقفا داخل العطفة بعيدا عن أنوار الشارع . وبلغ ماسح الأحذية موقف الرجلين عندما كان حامد وسهام يسيران بجذائه . وبغته رفع الرجل الذي ناداه يده بهراوة إلى أقصى الذراع ثم هوى بها بكل قوة فوق رأسه . صرخ الرجل متراجعا إلى الشارع وقد سقط الصندوق من يده . وتشبثت سهام بذراع حامد وهي ترتعد . وفي نفس الوقت رفع الرجل الآخر يده بهراوته وهوى بها فوق رأس الرجل المترنخ فوقع على ركبتيه متأوها :

— آه .. انجدوني ..

تتابعت الضربات من الرجلين بسرعة في قسوة وعنف وإصرار حتى تهشم الرأس وغرق في بحيرة من دماء . وحملت سهام في المنظر الدموي بلا إرادة ثم شهقت وتداعت مغمى عليها فتلقاها حامد بين ذراعيه . وارتفع الصياح ، وهرع الناس إلى المكان من جميع الجهات ، وهب الجالسون على الطوار من رواد القهوة وقوفا يتطلعون ، ثم قدم شرطى جريا وهو يصفر . لم يجز القاتلان . لم يحاولا الهرب قط . وظل كلاهما قابضاً على هراوته

الملطخة بالدماء وعيناهما تعكسان نظرات وحشية متحجرة . وقال أكبرهما :

— نحن تحت أمر الشاويش ولكن حذار أن يقترب منكم أحد .

حمل حامد سهام بين ذراعيه ومضى بها إلى مشرب عصير قريب من القهوة . أجلسها على مقعد في أقصى المحل وراح يربت على خديها برفق .

وسأله صاحب المحل :

— أطلب الإسعاف ؟

فأجاب وهو ييلل منديله بالماء :

— انتظر لحظة من فضلك ، ربما أفأقت دون حاجة إلى مساعدة ...

وجعل يمسح بالمنديل المبلل وجهها وعنقها حتى عجن البودرة بالأحمر بالكحل ، هذا والضجة في الخارج تتزايد وسباب يتبادل بلا حساب .

وفتحت سهام عينيها . رنت بهما إلى وجهه في ذهول . وقلبتهما في الوجوه بدهشة ، ثم غمغمت :

— أنا تعبانة ..

فقال لها وهو يواصل مسح وجهها ليزيل عنه الأصباغ تماما :

— سأتيك بكوب عصير ..

شربت قليلا فيما يشبه التقزز وغمغمت مرة أخرى :

— منظر فظيع لا يمكن أن ينسى ..

— سينسى كل شيء حتما .

— ووقع الضربات على الرأس .. آه ..

— شدي حيلك ، يجب أن نذهب .

وإذا بصرخة تفلت منها وهى تشير إلى قميصه بعصبية منذرة . نظر في مرآة فرأى رشاشا من الدم قد لوث أعلى قميصه فتقلص وجهه ورأى مثله فوق صفحة حقيبتها البيضاء وثنية شالها . بل منديله للمرة الرابعة وراح يزيل آثار



.. وبلغ ماسح الأحذية موقف الرجلين
عندما كان حامد وسهام يسيران بجذائه

— ١٣٦ —

الدم عن القميص والحقيبة والشال فهتفت :

— هل لوثنى أيضا ؟

— لم يعد هناك شيء ، انظري بنفسك .

عاودتها الرعدة فقال بجزع :

— لا شيء خطير ألبتة ، لسنا أطفالا على أى حال .

— لا تترك نقطة واحدة .

— طبعاً .. طبعاً . استريحى واهدئى .

أغمضت عينها فى إعياء واستسلام ، ورجع أناس من مكان الحادث إلى مقاعدهم وهم يتبادلون التعليقات فسأل صاحب المحل الذى لم يستطع مغادرته :

— كيف حال جاد الله ؟

— مات وشبع موتا ..

— مسكين ، لكنه رجل طيب ولا أعداء له ؟

— القاتلان ليسا من البلد ، صعيديان من أبنوب !

— ما له وأبنوب ؟ .. عرفته هنا منذ عشرين عاما .

— ثار قديم ، هذا مؤكد .

وقال رجل بلهجة تلخيصية :

— لعله جاء من بلده هاربا ، ثم عمروا عليه فانتهى عمره الليلة ، حكاية

لم تعد تدهش أحدا ..

الهارب من الإعدام

غزا الجيش الألماني الأراضي البولندية ...
انطلق الخبير من راديو مثبت في كوة بجدار الحجرة الوحيدة القائمة في
الخرابة ، وترامى خارج الأسوار في أرض الخفير الواسعة ، وصاح دحروج
بجدة :

— هس .: اسمع أنت وهى ..
سكت عن الزباط الولد وأخواته الثلاث . ولما رأوا الجد في وجه أبيهم
تسللوا بين أكوام الخردة وإطارات السيارات وقطع الغيار إلى الطرف القصي
من الخرابية ، وهناك وصلوا لعبيهم في أمان . وتوقفت آمنة عن نشر الغسيل
رافعة رأسها فوق الحبل المعلق ما بين قضيب بنافاذة الحجرة وسقف لورى قديم
وصاحت بزوجها محتجة :

— أفزعت العيال ، ملعون الراديو وأخباره !
تجاهلها دحروج في غير ما غضب وأخذ النفس الأخير من عقب سيجارة
ممسك بأتمليه ثم قال :

— إذن هى الحرب !
أدرك سلامة أن الكلام موجه إليه فرفع رأسه عن عجلة كان يعالج إطارها
وحدج الرجل بعينين تلتمعان وسط لحية سوداء غزيرة تكتنف الوجه
وتسترسل حتى الرقبة ثم قال باستهانة :
— نعم ، أخيرا صدقوا .

وانتهز سلامة فرصة تحول رأس دحروج نحو الصوت فاسترق إلى المرأة نظرة
استقرت فوق وجهها المشرب ثم انحدرت إلى جسمها المشوق الريان
الصدر . ولحته المرأة قبل أن يستردها كأنما توقعتها وسرعان ما ولته ظهرها .



.. فرقع رأسه عن عجلة كان يعالج إطارها
وحدج الرجل بعينين براقيتين تلتمعان وسط
لحية سوداء غزيرة تكشف الوجه .

— ١٤٠ —

انحنى الرجل فوق العجلة وهو يقول لنفسه ما أفضع الحرب في حرارة أغسطس ، ما أفضع الحرارة !. والتفت دحروج نحوه وهو يقول :

— طالما تنبأوا بأنها ستخرب العالم ، ماذا عنا نحن ؟
أجاب السني باسمها :

— نحن بعيدون ، فليأكل بعضهم بعضا ..

وضع رجلا على رجل وهو يجلس على صفيحة مقلوبة ونظر إلى بعيد نظرة حاملة ثم قال :

— سمعنا الأعاجيب عن الحرب الماضية .
فقال آمنة ضاحكة :

— أصلك عجوز !

فضحك دحروج عن أسنان سود قائلا بسخرية :
— أنت لا تهتمين إلا ببطنك ..

وقال سلامة وكان رغم تجاوزه الشباب يصغر صاحبه بعشر سنوات على الأقل :

— حقا سمعنا الأعاجيب .

— الأسيوطي من هو ؟ ، كان قبل الحرب شيلا !

ورجع العيال ناسين الوعيد فرجعت الضوضاء ، وجرى محمود ابن السابعة — وهو البكرى — وهن في ذيله فرمقه أبوه بإعجاب وصاح به :

— ولد يا محمود شد حيلك ، الحرب قامت !

وعند الأصيل جلس دحروج وسلامة على خيشة متجاورين خارج سور الخرابة . ترامت أمامهما الصحراء حتى سفح الجبل ، منطفئة الرمال تحت الظل ، وانداحت في السماء الصافية صفرة باهتة هي بقية أنفاس القيظ المختنقة . وثمة شعاع وان من الشمس المائلة يتسلق هامة الجبل في عجلة ، على

أن الصحراء تزفر هواء منعشا باقتراب المساء . وراح دحروج يعد القروش
والسننى مسند الرأس إلى جدار السور سارح البصر فى الأفق . وجاءت، آمنة
بالشأى، وجرى العيال إلى الخلاء حفاة نصف عرايا . ورشف دحروج قليلا من
الشأى الساخن وهو يقول :

— قلبى يحدثنى يا سلامة بأن الشغل سيضحك عاليا .

— ليصدق قلبك يا أبو محمود .

— ليتنى أستطيع أن أعتمد عليك .

— صديقك .. وأسير شهامتك .. ولكن لا يمكن أن أبرح الخرابة !،

تفكر دحروج قليلا ثم تسأل :

— هل يعرفك أحد فى المدينة الكبيرة خلف هذه اللحية ؟

— إنهم يعرفون الجن .

— وهل ينقضى عمرك فى الخرابة ؟

— هى خير من جبل المشنقة يا أبو محمود !.

أطلق دحروج ضحكة عالية ثم قال :

— يحق لى أن أضحك كلما تذكرت حكاية هربك من بين حارسين !

— خير الهرب ما وقع حيث لا ينتظر .

فقالت آمنة وهى واقفة مستقبلة الخلاء وقد انحسر شالها عن نصف رأسها

الفاحم :

— وانعدم الرجل بلا دية !

فقال سلامة ببرة غاضبة :

— كان قاتلا ابن قاتل ، وقد تقدم به العمر حتى خفت أن يسبقنى الموت

إليه ، ولم يكن يكف الأهل عن مطالبتى بالنأر .

فقهقه دحروج عاليا ثم قال :

— وهربت والأوراق محمولة إلى المفتى ..

شد سلامة على ذراعه بامتنان قائلا :

— ووجدت نفسى ضائعا فقلت ليس لى إلا دحروج صديق صبأى فأويتنى
يا شهيم الرجال .

— نحن رجال يا سلامة .

— على أى حال فالخزن هنا فى حاجة إلى رجل وإنى رجله .

وقطع حديثهم ظهور جنازة فى الأفق قادمة من ناحية العمران . مضت
تتقدم نحو الطريق المحاذى لسور الخرابة الغربى المفضى فى نهايته إلى قرافة الخفير .
ووضع النعش مسجى بغطاء من الحرير الأبيض فتمتت آمنة :

— شابة صغيرة يا حسرة عليها .

فقال سلامة :

— المكان هنا جميل وآمن فلا عيب فيه إلا أنه فى طريق القرافة .

فتساءل دحروج وهو يضحك :

— أليس طريقنا جميعا !؟

لم يطرأ على الخلاء تغير يذكر مذ أعلنت الحرب . ظل ملعبا للشمس من
الشروق إلى الغروب ، ومعبر اللعوش ومعسكر الصمت . وأطلقت زمارات
إنذار فى تجارب غارات وهمية . وارتفعت أهمية الراديو القديم الباهت إلى القمة
حتى بات فى وسع دحروج أن يحصى القنابل المتبادلة بين سيجفريد وماجينو .
وكلما استقبلت حواس سلامة صوتا منغوما أو حركة لاعبة أو نظرة ولو غير
مقصودة احترق باطنه بنار شرهة وغضب فى ذات الوقت على نفسه بلا رحمة .
وقال دحروج فى ضجر :

— الحال لم تتغير فأين ما سمعنا عن الحرب !؟

— صبرك ، ألا تذكر ما قال عميلك اليهودى ؟

نظر دحروج نحو أكوام الحديد التي ملأ بها المكان عملاً بنصيحة عميله ثم قال :

- فلتسرع الأيام ..
- فلتسرع ، ولتلتهم خمسة عشر عاماً من الزمن !
- خمسة عشر عاماً !؟
- في آخرها تسقط عنى العقوبة !
- يا له من عمر ! ، سوف نكون على حافة حرب ثالثة !
- وراح يغنى بصوت محشرج غريب « يا بهية خيرينى » ثم هتف :
- معلم دحروج .. لن يبقى من أهلى أحد إلا النساء !
- وقال إن آمنة تلعب بعقله وهى لا تدرى ، أو وهى تدرى وأنه سيدخل الجحيم قبل أن يدركه الموت . ولم تكن الحرب تهمه فى شيء ولكنه سمع بين فواصل من الأغاني أنباء اجتياح هولندا وبلجيكا وسقوط باريس . وتتابعت أمام العين طوابير اللاجئين ، وامتلاً الفراغ بالتهديدات والدموع ، ثم إذا بإيطاليا تعلن الحرب . وقال دحروج بقلق :
- ها هى تدق الأبواب !
- فقال سلامة بعدم اكتراث :
- لا علينا ولا لنا .
- وتمتت آمنة وهى تتابع لعب العيال العرايا حول برميل مليء بالماء :
- ربنا كبير .
- ولأول مرة انطلقت زمارة إنذار بغارة حقيقية . استيقظ دحروج وأسرته كما استيقظ سلامة فى مرقدته باللورى . وأعلنت آمنة عن خوفها على العيال وقالت إن الخبأ بعيد فقال دحروج :
- ابقى فى الحجرة فلن يضربوا الخلاء أو القرافة ..

ورفع سلامة رأسه نحو البدر الذى يحدق فيهم بهدوئه الأبدى ثم قال :
— لا أرى إلا أنوارا مجنونة .

ومن نافذة اللورى مد بصره إلى الحجرة المغلقة . قائمة لصق السور على يسار المدخل بسقف مائل نحو الباب وجدار لا لون له ، مطلية بضوء القمر طاوية جوارحها على قلوب مفعمة بالقلق ، ككوخ مهجور فتخيل أنه جن الليل والخلاء . والغارة تنقض فتهدم كل قائم فى المدينة وتطيح بالقانون والمفتى والقاضى والسجان وحبل المشنقة . ويتفجر باطن الأرض وتجتاح كل شئء حتى الشهامة تحتق أنفاسها . وينهض من بين الأنقاض رجل عار وامرأة ممزقة الثياب وقد قتل الرقباء .

وتلاحقت الغارات ليلة بعد أخرى . غارات صامته كالخلاء أو تتخللها مدافع مضادة . واعتاد دحروج فى أثناء الغارة أن يذهب إلى سلامة فى اللورى ليشاهد السماء ويتحدثا :

— ليست الغارات كما سمعنا !

— الطليان ليسوا كالألمان .

وضحك دحروج وقبض على لحيته سلامة قائلا :

— أنت مغالط عزرائيل فى عمرك !

— نعم ، كان ينبغى أن أكون فى القبر منذ عام ونصف عام على الأقل .

— ولذلك فأنت لا تخاف الموت ؟!

— بل أخافه منذ أن شممت رائحته وهم يحملونه إلى المفتى !

— تصور كيف كان يكون شكلك الآن ؟

— أحمد الله الذى أمهلنى حتى أرى الأنوار الكاشفة والمدافع المضادة ..

ودب نشاط جديد فى الخرابية ثم تضخم بحال لم يحلم بها دحروج من قبل . ومضى يغيب عن المكان ساعات كل يوم ثم استغرقت الأعمال الخارجية نهاره

كله . وعمل سلامة في الخرابة بكل همة كحارس وكخزان . وفي أوقات الفراغ يجلس على إطار من المطاط مسند الظهر إلى رفرف اللورى الخلفى ، يدخن سيجارة أو يمشط لحيته ، وعيناه الحادثان تذعانان في مطاوعة متزايدة لرغباته الجامحة . وقال إنها تتجاهل عينيه ولكنها شديدة الإحساس بهما طوال الوقت ، وإن نظرتة الثاقبة تسيطر على حركاتها وسكناتها كأنما تلعب بهما بخيط خفى . ونظر إلى السماء يتابع حداة تجول جولة الوداع عند الأصيل ثم نظر أمامه فرآها واقفة على مبعده أمتار منه تجاه الصنبور الذى تدفق منه الماء إلى صفيحة . وقال :

— كان يوما شديد الحرارة ..

هزت رأسها بالإيجاب ، ونظرت إلى عينيه المحدثين ثم غضت بصرها وهي تدارى ابتسامه . اكتسحت الابتسامه وازع الشهامه فى صدره فاجتاحه إعصار . وتهد بصوت مسموع فزجرت المرأة محمود الذى جذب أخته من ضفيريها عند الباب . وسألته :

— أعد لك الشاي ؟

فقال بنبرة تمردت على سيطرته :

— من المنتظر أن يسافر قريبا إلى الشرقية !

ورجع دحروج مع المساء . بدا متعبا معفرا ولكن النجاح تألق فى عينيه .

وضحك عاليا وهو يقول لسلامة :

— يا ولد العم ، لىست الحرب كما يقولون ، الحرب نعمة كبرى !

وأعطى آمنة لفافة لحم كبيرة قائلًا :

— أسرعى ، لم أذق اليوم لقمة واحدة .

ومن داخل الحجره وهو يغير ملبسه ارتفع صوته :

— سأسافر غدا إلى الشرقية ..

(بيت سبى السمعة)

غاب يومين وعند أصيل اليوم الثالث انتظره سلامة فوق الخيشة خارج السور . جلس هادئا ثقيل الجفنين ، يتخلل لحيته بأصابعه ، يحصى الحدأ المتخلقة ويبادل الخلاء فتورا واستسلاما . وترامى إليه من الداخل صوت آمنة وهي تنهر العيال بصوت هزه المرح فرنا إلى ذيل الشمس الآخذة في الانحسار عن قمة الجبل وقال إن الليل لن يلبث أن يجثم . ولفته صوت من الغرب فرأى تاكسى قادما حتى وقف عند نهاية السور ثم غادره دحروج . اقترب الرجل وهو يضرب الأرض بقدم ثقيلة ثابتة ورأسه مرفوع . استقبله واقفا فتصافحا ثم لكمه الرجل في صدره وهو يضحك قائلا :

— سلامة يا ابن زينب ، الإنجليز رجال !

رمقه مستطلعا فاستطرد الآخر في مباهاة :

— وأصلهم من الصعيد !..

فدعا له بالمزيد من التوفيق . ودخل الرجل الخرابة صائحا بفرح كالأطفال :

— ولد يا محمود ..

وراح يغنى « سلم على » وهو يفرقع بأصابعه راقصا .
وعوت الزمارة قبيل الفجر فمضى دحروج وسلامة إلى الخلاء خارج السور كما تعودا أن يفعلا أخيرا .

وقال دحروج .

— لم تعد الزمارة تخيف أحدا .

انسابت الصحراء تحت ضوء القمر مرتعا للأحلام . وضحك دحروج طويلا حتى سأله سلامة عما يضحكه فأجاب وهو يوميء بكوعه إلى الحجر :
— شهدت هذه الليلة عمك دحروج كما كانت تشهد ليالي الشباب !
وحل صمت قصير مسقوفا بأنوار الكشافات ثم عاد دحروج يقول بلهجة

جادة وأخوية معا :

— سلامة . ليس اليوم كالأمس ، سيجيء كثيرون من العملاء الجدد ،
أخشى عليك !

سأله سلامة واجما :

— هل ينبغي أن أذهب ؟

— نعم ، سأهريك إلى فلسطين ، وستعمل هناك لحسابي ، ما رأيك ؟

— الرأي رأيك ..

قال بثقة :

— كل شيء مرسوم يا ابن زينب !

وفجأة ارتجت الأرض بزلزال ودوى انفجار شل خفقان القلب . شد

دخروج على ساعد سلامة بعصبية :

— ما هذا ؟

أجاب سلامة ووجهه يشحب في ضوء القمر :

— قبلة .. أسرع إلى الحجرة ..

وارتفعت صرخة آمنة فصاح بها دخروج :

— مكانك .. مكانك يا آمنة ..

وإذا بالضرب يتتابع بلا توقف . جرى الرجلان نحو الخرابة . وفي اللحظة

التالية ندت صرخة عن دخروج ثم سقط على وجهه . هتف سلامة :

— معلم !

وانحنى فوقه ليساعده على القيام ولكنه لم يستطع شيئا . وانطرح فوقه

بلاإرادة . وانغرزت جبهته في الرمال . وهبطت الأرض . وارتفع جناح

الصحراء صوب السماء . وشيء كثيف حجب وجه القمر .

— ١٤٨ —

— ماذا بك يا دحروج ؟

ونادى صوت ثم ابتلع الظلام كل صوت وكل لون .
وأراد سلامة أن يقول لصاحبه : ساحنى لقد غلبنى النوم ..
ولكنه لم ينبس بكلمة واحدة .

سائق الفطار

كل شيء يجرى إلى الوراء . الصفصاف وأعمدة البرق تجرى بسرعة فاتقة
 أما الأسلاك فتسبح بلا توقف هابطة صاعدة . وعلى مدى البصر تغمر الشمس
 غير المرئية الحقول والجداول وقطعان البقر والجاموس وأبناء الأرض . ودّ أن
 يستسلم لتيار المناظر ولكن حناجر الجيران المزعجة أبت عليه ذلك . ما بالهم
 محتدين . لماذا يغطى صخبهم على صوت الديزل ! . وحول عينيه إلى الداخل
 فرأى إلى يمينه رجلا بدينا ذكرته هيئته بدب ، وعلى المقعد المزوج أمامه جلس
 رجل له وجه صقر وامرأة حسناء تابعت حديثهما الصاحب بضيق وخرج
 واضحين . وقال الصقر مخاطبا الدب بحدة وانفعال :

— لا تحاول غبثا .. !

واشدت بريق عينيه الجاحظتين وتجمع في ركني فيه زيد أبيض وسرت
 تقلصات عصبية في شاربه المقوس كهلال مقلوب وبدت الحسناء وادعة
 كحمامة ولكنها في خلال المناقشة الحامية هجرت فوق الرف ، ثم تطوعت
 لتلطيف الجو فخاطبت الصقر قائلة بصوت ناعم :

— أعطه فرصة .. اسمع رأيه ..

فصاح بها :

— لا تتدخلى .. أنا هو أنا ..

تراجعت بجماها ونعومتها وأسها . وفي أثناء ذلك التقت عينها بعيني
 الغريب الجالس إلى جوار النافذة وكأنما آلمها أن تعامل أمامه كطفلة . ويقدر
 ما أسف الغريب لحالها بقدر ما بهره جمال عينها وهما ينفذان في عينيه . وقال
 الدب في هدوء نسبي ولكن بصوت ذى رنين منفر :

— على أى حال فالناس للناس ..



فصاح بها : لا تتدخلی ... أنا هو أنا

— هراء ! أنا أتعامل مع جميع أنواع الحيوان أما ذلك الإنسان ..
ولوى بوزه بازدرء لا حد له فسأله الآخر :
— هل علمت بما جرى له فى الفترة الأخيرة ؟
— أنا أعرف أقصر طريق بين نقطتين !
— سنجد فى النهاية أن يدك اليمنى تضرب اليسرى .
فلوح بيده غاضبا وهو يقول :
— إننا لا نتردد عن بتر اليد أو الساق عند الضرورة !
آه .. لا سبيل إلى الاستمتاع بالمناظر الخلابة فى الخارج . ومهما تتجاهل
المعركة السخيفة التى انحصرت فى مجالها فسوف تلاحقك كضربات المطرقة .
لن تنسى الزبد المقرف وحتى رنوة العين الصافية لن تدعك فى سلام ! . وللحال
تؤكد أن احتدام المعركة لن ينقطع كدوى عجلات الديزل المتواصل فى روتين
مسمم ، وليس ثمة مقعد خال فى العربة يمكن الهروب إليه .
وطرح رأسه على مسند المقعد وأغمض عينيه . وكأن الله استجاب لدعاء
خفى فأخذت المناقشة تستهلك نفسها بنفسها فخفتت الأصوات ثم حل
صمت عمجيب مريح ، وقد خلا كل إلى تياره . بديع كحللم . واللجنة على
الرجل العنيد وعلى كل خصام . وفتح عينيه ربع فتحة مسترقا نظرة من الوجه
الرائق فرآه منبسطا قد زايله الحرج والخجل وشعور المذلة . وعلى حين راح
الدب يشخر انهمك الصقر فى مطالعة جريدة ، وتجلت فى عينى الحسناء نظرة
هادئة كأول إشراقة للصباح ، متادية فى الحلم لا تنظر إلى شىء بالذات . وفتح
عينيه نصف فتحة فالتفتت عيناها إليه مستجيبة فيما بدا لإحساس خفى . وقال
لها — فى باطنه — كم أحب منظرك ، فحولت عنه عينها فى شبه رضى حتى
عجب لقوته السحرية . وانتبه إلى ما حوله أقصى انتباه ، ولما اطمأن إلى غفلة
الصقر ونوم الدب ملأ عينيه منها بنهم ، فرأى فيما رأى خاتم الزواج فى يسرها

المستكنة على يمينها فوق بطنها . وما لبث الصقر أن نحى الجريدة جانبا ومال برأسه إلى الوراء ثم استغرق في النوم . وتولاه شعور بالأمان عجيب كأن الدنيا قد خلت بعد نوم الرجلين خلوا تماما . وانبعثت من أعماقه جسارة واستهانة فواصل حديثه الباطني بعينه إلى أبعاد مدى . وقامت المرأة وهي تبتسم ابتسامة لا ترى عادة إلا بالقلب ومضت نحو مدخل العربة . وباندفاع لا روية فيه قام ثم تبعها على الأثر . ولم يكن بالمدخل أحد سواها ، ولم تدخل دورة المياه كما توقع ولكنها وقفت وراء الباب المحكم الإغلاق رائية إلى الحقول ، ولما سمعت وقع قدميه التفتت نحوه عفوا فانتبهز الفرصة وحياتها بهزة قصيرة من رأسه . أعادت رأسها إلى موضعه الأول دون رد ودون اعتراض كذلك فقال متشجعا :

— لاحظت بأسف شديد التنافر الواضح بين طبعك الهادئ والجلسة المرعجة !

وافقت على رأيه بمزيد من الصمت الراضى فضحك ضحكة قصيرة خافتة وهو يهمس :

— الوقوف هنا أجمل .

عند ذاك تمتت :

— أظننا أزعجناك أكثر مما يحتمل .

ولشعوره بقصر الفرصة المتاحة سألها :

— حضرتك من القاهرة ؟

هزت رأسها بالنفي . وبعد وقفة قصيرة قالت :

— من طنطا ، وحضرتك ؟

هزه السؤال الإيجابي حتى الأعماق فقال دون تردد :

— أنا من القاهرة ، أيمن أن أعرف عنوانك ؟

— لا فائدة ، نحن نقيم في العزبة ..

- ربما سافرت إلى القاهرة فخذى رقم التليفون ..
— لا فائدة ..
— وبعد أن ألقى نظرة على الباب المغلق قال بحماسة :
— إن ما بي هو الجنون بعينه ، لا يمكن أن نسلم بالفراق دون مقاومة ، أنت تفهمين ذلك ؟
— نعم ..
— ارتفعت حماسة حماسه إلى القمة وهو يقول :
— يخيل إليّ أنك غير سعيدة ..
— نعم ، جميع ما حولى مرعب مقزز ، أود أن أطير بعيدا ..
— إذن طيرى .
— حدجته بنظرة متسائلة تروم أملا فقال :
— تغادر الديزل فى دمنهور .
— أهرب ا
— نعم ، لا وقت للتردد ..
— وبعد ذلك ؟
— دعى الباقي لى .
— ربما استيقظ قبل ذلك ، هو أو الآخر ..
— سوف يظنك بدورة المياه ..
— ولكن ..
— لا لكن ، سنحاول ، هى فرصتنا على أى حال .
— لكن لا أحد منا يعرف الآخر !
— ما عرفناه حتى الآن أهم بكثير مما لم نعرفه بعد !
— وفتح الباب قيراطا لينظر إلى داخل العربة ولما وجد كل شيء هادئا أغلقه ثم

نظر في الساعة وقال :

— لدينا دقائق قبل دمنهور ، سأتى بحقيبتى الصغيرة .

ورجع بعينين ملتصعتين ووجه شديد الإصرار فقال بقلق :

— القطار لم يهدئ من سرعته !

فتنظر في الساعة مرة أخرى وقال :

— لعلى أخطأت في التقدير .

العكس حصل إذ زادت سرعة الديزل زيادة محسوسة غير متوقعة وما لبثت

المرأة أن هتفت :

— انظر !

مشيرة إلى محطة دمنهور وهى تجرى بسرعة فائقة إلى الورا ككل شىء في

الخارج :

— كيف لم يقف في محطة دمنهور !؟

وإذا بباب العربية يفتح ، ورجل يندفع منه نحو باب العربية التالية وهو يصيح

بأعلى صوته :

— السائق جن !.. وسهلكننا جميعا !

استدارت المرأة في ذهول وتبادلت مع الرجل نظرة حائرة ، وترك الرجل

حقيقته ثم فتح باب العربية ناظرا إلى الداخل فرأى جميع الركاب واقفين في حال

من الاضطراب والذعر لا توصف . وقد فتحت النوافذ جميعا واختلطت

الأصوات وارتفعت في هלוسة ، ورأى الصقر وهو يصرخ غاضبا وفي ذات

الوقت ينظر حوالية باحثا — فيما أعتقد — عن المرأة ، فأراد أن يحذرها ولكنه

سرعان ما نسى ذلك واندفع نحو الداخل سائلا عما هنالك فلم يسمع صوته

فشق سبيله بعسر شديد نحو العربية التالية صائحا :

— أين المفتش ؟.. أين رجال القطار ..؟

ومد يده ليفتح الباب فانفتح قبل أن يلمسه وهوول إلى الداخل رجل صائحا :

— السائق اعتدى على مساعده وقذف به خارج حجرتة !

فسأله بأعلى صوته :

— قبضوا عليه ؟

— أغلق بابه دونهم ودفع القاطرة إلى آخر سرعة ..

وارتطم الصباح بالصوات . ورغم الضجة المدوية سمع صوتا يقول :

— ستنفجر القاطرة أو يقع اصطدام قاتل .

— والعمل ؟.

— سيهلك الجميع ..

اندفع من الباب مخترقا البوفيه إلى المدخل المتصل بحجرة السائق المغلقة فرأى

المفتش ورجال القطار ونفرا من الركاب ، وسمع أحدهم يسأل :

— ما العمل ؟

فأجاب المفتش :

— نحن نفكر في كل شيء .

— وهل ثمة أمل ؟

تجاهل المفتش السؤال ثم رفع يده داعيا الجميع إلى السكوت فأطبق

الصمت ، ثم راح يطرق الباب المغلق بيده هاتفا :

— عبد الغفار أصغ إليّ ..

فجاء من الداخل صوت كالرعد :

— لا تحاول .. عبثا ..

فصاح المفتش :

— يجب أن نسمع لنا .. لا شأن للناس بمشاكلك الخاصة .

— أنا هو أنا !

— عبد الغفار .. ما ذنب الناس ؟، معك رجال ونساء وأطفال .. كلهم

أبرياء !

— هراء !

— ارجع إلى عقلك قبل فوات الفرصة .

— هراء !

— تذكر ربك ، ألا تخشى لقاءه ؟

— هراء !

ارتفعت درجات الذعر إلى غير حد ، وتفشى الاضطراب في كل موضع .
وبذلت محاولات يائسة لدفع الباب أو تحطيمه ولكنها سرعان ما توقفت عندما
هدد السائق بتفجير القاطرة . وأغمى على كثرة من النساء وبعض الرجال .
وقد شاب أعصابه فرمى بنفسه من إحدى النوافذ مودعا الحياة بعواء ظل
صداه يتردد طويلا . ونشبت معارك غريبة لم يعنى أحد بفضها أو معرفة
بواعثها .

واقرب الرجل من كبير المفتشين وزعق به :

— أليس هنالك من حيلة ؟

فأجاب الرجل بصوت لا يقل عنه درجة واحدة :

— جربنا كل حيلة !

— أيعنى هذا أن نفنى جميعا لا لسبب إلا ...

وشعر بذراعين تطوقانه من خلف قبل أن يتم جملته فالتفت في ذعر واضح

فرأى المرأة تطالعه بوجه مخطوف وبصر زائف فصاح بها بغيظ لم يحاول إخفائه :

— تشددى .. لا وقت لهذا ..

فقالت بصوت مخنوق :

— ١٥٨ —

- أين أنت !، جن زوجى فخنق أخى ثم راح يضرب رأسه فى الجدار ..
قال بضيق وكأنه لم يسمع شيئاً ؛
— نحن نجرى بسرعة جنونية نحو الفناء .
ارتمت بين يديه مغمى عليها فقطب فى حنق ، ثم مضى يجررها إلى ركن
المكان فأنامها على الأرض بسرعة آلية باردة ، ولما عاد إلى المفتش وجده
يصرخ ويشد شاربه ويكى !. ودق الرجل الباب بقبضتين مجنوتتين هاتفا :
— يا عبد الغفار .. يا عبد الغفار ..
فجاءته الإجابة كطوبىة :
— أنا لا أعرفك ..
— ولكنك ستقتلنى ..
— هذا شأنى ولا علاقة له بك !
— أنا لم أسىء إليك ، لا أنا ولا الآخرون .
— لكنكم ركبتم قطارى .
— قل قولاً معقولاً ..
— أنتم المجانين !
— أليس لك أبناء ؟
— كلا .
— ألا تحب الحياة ؟
— كلا .
— أليس فى قلبك رحمة ؟
— كلا .
— خبرنى ما ذنبنا ؟
— أنتم تحبون الديزل ؟

— اطلب ما تشاء .

— ها أنا آخذ ما أريد بغير طلب .

وبصق المفتش على الباب صارخا :

— يا عبد الغفار يا مجرم يا وضيع يا غادر يا وحش !

وقرر الرجل أن يمضى إلى نافذة ليرمى بنفسه منها وليكن ما يكون . وهو يتحول عن موقفه وقعت عيناه على المرأة المستلقية في غيبوبة فقال ما أسعدها في غيبوبتها . ووجد الركاب متكئين يسدون المنافذ . توحدوا في ذهول ورعب وارتجاف . عثا حاول أن ينفذ من بينهم . ولما يئس رمى بنفسه عليهم وسرعان ما تلقته الأيدي بالضرب فانهاled عليهم بدوره ضربا حتى لفهم الجنون جميعا . وإذا بالواقعة تقع . وقعت الصدمة المتوقعة كأنها ارتطام كوني . اندفع الناس بقوة جهنمية فحطمت الرؤوس ، وطحنت الجدران الأجساد . صرخ الرجل بأعلى حنجرته ورأى النجوم تتهاوى من حوله وصرخته تدور في فراغ أحمر .

فتح عينيه ودوى صرخته يجمع في أذنه !

آه .. إنه لا يصدق . اعتدل في جلسته وهو يظن صرخته قد مزقت الأذان . ولبت هنيهة لا يجروء على النظر إلى أحد . ثم أخذ يسترق النظر في حذر شديد فلم ير أحدا شاعرا له بوجود . تنهد من الأعماق . وما لبث أن تنبه إلى استمرار النقاش الحاد بين الصقر والدب .

ورأى المرأة نصف مغمضة العينين غارقة في الضجر . اللعنة .. اللعنة .

وكان الصقر يتحدى صاحبه قائلا :

— دعك من ضرب الأمثال العقيمة ، لا تضيع وقتي سدى ، أنت تعلم أن

أنا هو أنا .. !

لونا بآرك

(بيت سبى السمعة)

تحرك ببطء في طابور طويل طاويا تذكرة الدخول في يده . تذكرة أهداها إليه أبوه وكانت في الأصل ضمن الهدايا التي توزع باسم مدير لونا بارك . تحرك في عالم غريب مكتظ بالبشر فتلفت في وقت واحد فيضا لا نهاية له من الأصوات والأضواء والروائح العطرية والعرق وضغط الأجساد . ومضى يتزحزح خطوة فخطوة في المدخل الممتد على هيئة بوق حتى يخرج من فوهته وقد زهقت منه الأنفاس . وجد نفسه في ساحة يطوف بها نسيم رقيق وتطوف بجناحيها أشجار متوسطة مغروسة في أصص كبيرة فاتجه نحو طريق ضيقة تقوم على جانبيها دكاكين الأطعمة فأفضت به إلى الملعب الكبير . في الفرج الذي جاء بعد الضيق شعر بأنه ولد من جديد ، وهكذا بدأ رحلته . وصمم على تجربة كل لعبة فإنه لم يتكبد مشقة المجيء ليبقى متفرجا . وصادفه مربع الأراجيح ، وكان أكثر رواده من الأطفال ولكنه لم يخل من مغامر شاب ، وإذا به يتخذ موقفه في القارب الحديدي قابضا بيديه على العمودين ، ويدفعه بحركة ذاتية فيصعد به ويهبط محيا ذكريات جميلة . وغادرها وهو راض عن نفسه تماما فابتاع بسكويتة دندرمة ومضى في رحلته .

وللحال جذب انتباهه فرقة وهتاف ، وصوت الداعى « جرب قوة عضلاتك » . ورأى مدفع القوة يندفع فوق القضيبين الصاعدين نحو الهدف وقد ازدحم وراء الحاجز المتفرجون والمتنظرون لدورهم .

توثبت عضلاته للنضال . وسرعان ما اتخذ مكانه بين المتنظرين وهو يتسم في ثقة . ولما جاء دوره تقدم من قاعدة المدفع وتناول مقبضه الصلب ، وراح يدفعه دفعات قصيرة ليختبر ثقله وسرعته فينطلق إلى مدى قريب صاعدا ثم يتقهقر هابطا فيتلقاه من مقبضه مرة أخرى ، ثم شد على عضلاته ودفعه بأقصى

قوته فاندفع طاويا القضييين بسرعة حتى ارتطم بالهدف الفولاذى وفرقت الكيسولة فى مقدمته . تحول عن موقفه والهتاف يدوى ، ولكنه ذاب فى زحمة أكبر كما ذاب الهتاف فى ضوضاء حلقت فوق المكان كله . وشق سيلا مبهور العينين بأضواء المصابيح الملونة المتدلية من غصون الشجر حتى استقر أمام كشك لبيع البيرة الثلجة . ومال برأسه إلى الوراء وهو يرفع إقدح فرأى القمر فى الأفق منخفضا عن البالونات المنطلقة من صارى الملعب ، ولا تميز لنوره فى وهج الأضواء الساطعة ولا عبرة لجلاله فى الضوضاء المكتسحة الصاخبة . شرب حتى ارتوى . واستمع قليلا إلى أغنية تنال من مكبر صوت وهو ينظر من بعيد إلى مضمار السيارات المكهربة .

ومضى إلى المضمار بنشاط متجدد . استقل سيارة فبدأ الرحلة المكهربة . اندفعت السيارة بقوتها الذاتية ولم يكن عليه إلا أن يوجهها بعجلة القيادة متفاديا إذا شاء السيارات التى تحول حوله كالكوكب . ووقعت ارتطاما عن قصد أو عن عجز فاستمتع بالهجوم وبالهبوط على السواء ، حتى رأى سيارة تحمل فتاة قد تكالبت عليها السيارات ناطحة والفتاة لا تنى تضحك . عند ذاك دب فيه حماس جديد فاستجد لجولته معنى ، وطارذ سيارة الفتاة والشرر يتطاير من عجلات سيارته . وبدأ عسيرا أن يستخلصها لنفسه من المتنافسين ولكنه احتك بها مرة ، والتحم بها أخرى فى عناد فدارا معا حول أنفسهما حتى ألقى به سيارة متحدية بعيدا . وكان عليه أن يدور دورة كبيرة قبل أن يتمكن من استرداد ما فقدته غير أن الجرس رن معلنا انتهاء الدورة . ورأى الفتاة تغادر سيارتها تغادر سيارته . تبعها محاذرا حتى يبعد عن مجال الأعين التى توقع تجسسها عليه ، ثم أخذ يقترب منها . سمعت وقع أقدامه فنظرت وراءها لحظة فداخلته طمأنينة إلى النجاح . وأبطأت عند سياج مطرز بالياسمين والبنفسج يحيط بمطعم كباب مترام فى الهواء الطلق ففغمتها رائحة السواء الدسمة ممتزجة

بعبير الأزهار . همس :

— أنت سائقة ماهرة !

فابتسمت فقال لنفسه إنها جاءت لذلك . وقدم لها ذراعه فترددت قليلا ثم تأبطتها . ودعاها إلى قدحين من البيرة . اسمى حسن واسمى سعاد . ودمعت الأعين والشراب البارد ينساب إلى الأعماق . وسكب مكبر الصوت ألف ليلة ، أما القمر فقد ارتفع فوق الصاري نائيا بنفسه عن برج الأضواء وصخب الهاتفين .

— ليلة بديعة ولكن أجمل ما فيها هو أنت .

— أنت ظريف جدا .

— هل يعجبك القطار ؟

— ولو أنه مرعب أحيانا !

جلسا جنبا إلى جنب في المقعد الأخير من العربة الأخيرة ، ولحظ ابتسامتها وهو يختار المكان المنعزل فتوترت أعصابه ، وتناول يدها في يده والقطار يتحرك . سار القطار على مهل حتى اعترضته هضبة فاندفع صاعدا وضاعف اندفاعه وهو يهبط . وجرى بسرعة فوق متتابعات من المرتفعات والمنخفضات فطوقها بذراعه . ودار حول منعطف في تمهل ماكر وراح يرتقى جبلا في صمت ينذر بالخطر ، ثم انحط من عل كأنما يهوى في فراغ وارتفع الصراخ . شد على خاصرتهما فمال رأسها إلى ذراعه فطبع على شفيتها قبلة طويلة . لم يكده ينتبه بعد ذلك إلى معاكسات القطار حتى رجع إلى المحطة . وقال لها ومشروعات الليل تتواكب في رأسه :

— خير ما نفعل الآن أن نستريح في مشرب .

وتبادلا « صحتك » مرة أخرى . وتحرك ديبب النشوة في قلبه . ونظر في مرآة مكلفة بورد من البلاستيك فوق الطاولة فأعجبه شاربه الأسود وخداه



ورأى الفتاة تغادر سيارتها فغادر سيارته ، تبعها محاذرا
حتى يبعد عن مجال الأعين التي توقع تجسسها عليه .

الموردان . وحدثها عن الليل فأحنت رأسها بالإيجاب ، ولما غنى الصوت
الملائكى سأها :

— تحيين الغناء ؟

فأجابت بحماس :

— والرقص .

— وأى لعبة تودين ؟

— الحظ .

وجد حلقة الحظ كثيرة الزحام فبلغا سياجها بعد مشقة . وتناول كل منهما
حلقاته الخشبية الخفيفة وهو يتفحص الأهداف المنشورة في تقارب معجز
للصائد . سدا نحوها الحلقات فطاشت جميعها . وابتاعا مجموعة ثانية وثالثة
من الحلقات وهو يحلم طيلة الوقت بعلبة فضية لا يدري شيئا عما بداخلها على
حين ركزت هي على زجاجة فلير دامور . وبعد الجهد والبذل أصاب زجاجة
نيذ وكسبت هي عروسا عارية . وذهب وهو يفرض سدا زجاجة ثم تناول
منها شربة بعد أخرى . وركبا في أثناء ذلك الساقية فارتفعت بهما إلى جبين
القمر ، ثم رقصا فوق سطح الغريال ، ودارت الخمر برأسه فأفرط في مداعبتها
حتى همست في أذنه :

— حذار أن تلفت لنا الأنظار .

فقرصها في ساعدها البض فقالت بشيء من الحدة :

— لا .

وانترعت منه الزجاجة فأحكمت سدها ووضعتهما في الصندوق الكرتوني
لصق العروس . واستقلا ترولى غابة الأشباح فالقارب المترحلقي ، ثم وجدا
نفسيهما أمام وادي التيه المعروف بحجرة جحا . هتف بسرور :

— عز المطلوب :

لكنها قالت بفتور :

— لا أحبها ، سنتيه في سراديبها حتى نفقد الصبر .
فتناول يدها ضاحكا ثم دخلا . قطعا أمتارا في مدخل مربع ينتهي بسد في
الأمام ، وعن اليمين وعن اليسار نفقان يستديران إلى الداخل . ولاحظت تردده
بين النفقين فقالت محتجة :

— من أولها حيرة !

فمال إلى اليمين قائلا « لنكن من أهل اليمين » . سارا في نفق مستقيم مضاء
بفانوس يتدلى من السقف ، فانتها إلى حجرة مستطيلة بها منفذان غير المنفذ
الذي دخلا منه ، ووجدا بها بضعة أفراد وكان أحدهم يقول :

— هلكت من التعب .

فصاح آخر :

— الظاهر أننا لن نخرج إلى سطح الأرض مرة أخرى !
اتجه بها نحو المنفذ الأيمن فسارا في ممر بدأ ضيقا ثم أخذ في الاتساع حتى
اعترضته ثلاثة أبواب .

قلب عينيه بينها فقرأ على أوسطها بالقلم الرصاص « ادخل من هنا فإنه
مجرب » فتمتم :

— دعابة ماكرة لأحد اللاعبين ، على اللاعب هنا أن يعتمد على نفسه .

— لم تختار بابا دون آخر ؟

— العبرة بالتجربة .

— ولكن سنبدد وقت الفسحة .

— أليست حجرة جحا ضمن الفسحة ؟

مرقا من الباب الأيمن إلى ممر قصير أوصلهما إلى ميدان مسقوف متعدد
الأبواب على محيط دائرته ، وتكتظ ساحته بالنساء والرجال . فهقه البعض

وعبست وجوه في نرفة حقيقية . وقال رجل :

— لو أن أحدنا أصابه مكروه فهل يترك حتى يموت ؟

— لِم لا يوجد مندوبون عن الإدارة لتقديم المساعدة عند الضرورة ؟

— هل نادى أحد المسؤولين ؟

— نادى كثيرون ولا يجيب .

دخل حسن من أحد الأبواب فتخبطا طويلا من حجرة إلى ممر ومن ممر إلى سرداب ومن سرداب إلى نفق ، وتيار الحائرين يصادفهم في شتى الاتجاهات . ولم ينقطع لحظة واحدة عن الضحك أو الغضب أو التعليقات . وتوقفت سعاد وهي تقول في رجاء :

— لنرجع .

فضحك قائلا :

— ماذا يعني الرجوع أو ماذا يعني التقدم ؟ .. نحن نسير فحسب !

— ألا تذكر من أين أتيت ؟

— كلا .

— وطبعاً لا تدري أين تذهب !

— هذا واضح .

وهي تنتهد :

— تعبت وضجرت .

— نحن معا وفي هذا ما يكفي .

— ألا تسمع أصوات الغيظ ؟

— وأصوات الضحك ؟

— سنتخبط حتى موعد الإغلاق .

سر اللعبة لا يمكن أن يعرف في أول جولة فليس أمامنا إلا أن نجرب حظنا .

واستأنفا السير والتخبط ، وتجربة أبواب لا حصر لها وأنفاق وسرايب لا تنتهى . واشتكت أصابع قدميها فحذرت من الاضطراب إلى حملها بين ذراعيه . وزادت جزعا عندما رأت رجلا قد اقتعد الأرض يائسا في انتظار أن ينتشله رجل من الإدارة عند موعد الإغلاق . وطال بهما اللف والدوران والتخبط حتى تجهم الوقت ثم دفعا بابا بحركة روتينية ميكانيكية فإذا بباب الخروج يطالعهما ! . قام الباب على مبعده ثلاثة أمتار بهيجا رقيقا مضيقا محبوبا ، وتبدت ساحة لونا بارك من خلاله ساجحة في الأنوار والأنغام . غادرا حجرة جحا وهما يتصببان عرقا فذهبا إلى حديقة مشرب الجعة وطلبا بيرة . وضعت صندوق العروس على كرسي جنب حقيبتها وسلت قدميها من الحذاء وراحت تقبض أصابع قدميها المخضبة وتبسطها وهي تلحظه بعتاب . وبمجرد أن استقر الشراب في بطنه دار رأسه وتفاعل النبيذ والبيرة بحال غير ودية .

قالت :

— أنت عنيد أكثر مما ظننت .

— هكذا يجب أن تكون الفسحة في لونا بارك .

— توجد ألعاب لطيفة وأخرى سخيفة .

— الأفضل أن نجربها جميعا .

انتعشت بالشراب فطلب قدحين جديدين وهو يقول :

— لم تبق إلا لعبة الموتوسيكل .

قطبت متسائلة :

— تقصد لعبة الموت ؟

— لم تسمى بلعبة الموت رغم أنه لا يموت بها أحد !

— لا يسرنى أن أرى راكب الموتوسيكل الذى يبدأ دوزانه فوق الأرض ثم

ينتهى وهو يدور حول السقف !

— هي اللعبة الوحيدة التي لم نشترك فيها بعد .
— لا .. لا ..

— لِم لا ؟، ألا ترين أنها أشد إثارة من جميع سابقتها ؟

— لن تتحملها أعصابي ، ولا معنى لها .

— بغيرها ستظل فسحتنا ناقصة !

— فلتبق ناقصة فهذا أفضل .

— ما دمنا قد جفنا فعلينا أن نجرب كل لعبة .

— لا تجعلني أندم على معرفتك .

أذعنت إزاء عناده وهي متبرمة . وشربا للمرة الثالثة ثم دست قدميها في الحذاء وتأبطت ذراعه مرة أخرى . سارا على مهل اضطراري فوق سيقان مسترخية من الجهد . ثقل رأسه بالخمار وعاود الألم أصابع قدميها . والزياط من حولهما يشتد وأفواج جديدة من الناس تقدم رغم انتصاف الليل . وتوسط القمر السماء ، سماء صافية إلا من سحائب رقيقة متباعدة عبرت سطحه كأنفاس حارة في جو رطيب .

وترامى إليهما أزيز الموتوسيكل وهما يقتربان من زحمة المنتظرين أمام الباب . ضغطت ذراعه قائلة :

— كم أنك عنيد !

فقال وهو يهز رأسه :

— المؤسف حقا أن الفسحة ستنتهي .

وأدار نحوها وجهه بشوق وحنان ثم داعب ملتقى حاجبيها بإبهامه ليزيل عنه تقطبية منعقدة ، ولم يكف حتى منحته ابتسامة غير سعيدة .

موجہ تھر

المدينة الكبيرة تنفض النعاس في صمت السحر . وقبيل الشروق تخضب الأفق بحمرة قانية . وقطرت السماء الباهتة زمته فسطعت أنفاس دافئة . استند عسكري الداورية بجسر الجلاء إلى جذع شجرة رافعا رأسه إلى الأفق عبر النيل ، وبصق ، ثم تمخّم :

— يوم نكد حتى قبل أن تشرق الشمس !

وذابت الحمرة القانية في وهج الشمس ، وانهالت الأشعة على الكائنات . وسعى فوق الأرض باعة وعمال ، وسرعان ما التمعت الحياة بقطرات العرق وأكثر من صوت قال :

— يا له من يوم !

واشترى أحمد علة البلumont ثم مال إلى التليفون على طاولة الدكان فأدار القرص :

— نادرة ؟ .. صباح الخير .

.... —

— كلا ، لم أذهب إلى المصلحة بعد ، أنا أكلمك من دكان السجائر .

.... —

— فعلا ، والطريق أشد حرارة ، ولكنه جو مناسب لنزهة مسائية على شاطئ النيل ؟

.... —

— حسن ، الساعة مساء عند جسر الجلاء .

ارتفعت الشمس وسط هالة ناصعة قاسية . واستكن الهواء في كينونة ثقيلة متخلفة ، وقرص الذباب الخدود في بلادة وتكتل كالسخام فوق

صناديق القمامة . ونشرت الجماهير المتدفقة نحو محطة الباص الجرائد فوق الرعوس . وقال رجل :

— الفول يغلى فى بطنى !

فأجابه الآخر :

— إذن فكيف تكون الظهيرة !؟

وخلف المحطة مباشرة تبدت جباه العمال العاكفة على صف الحروف من نوافذ بدروم المطبعة وترامت أصوات الآلات بلا انقطاع .

وشابت القبة الباهتة صفرة كثيفة ضاربة فى حواشيتها إلى الاحمرار . ونزت الأرض رطوبة ساخنة أما الهواء فاختنق برائحة كريهة كأنما يتنفس دخانا . وفى إدارة الحسابات أغلقوا النوافذ ورشوا الأرض الخشبية الكالحة بالماء ، وأضاءوا مصباحا واحدا ، واستعملت الأضابير فى التهوية ، واتبعت نصيحة يجرب باحتساء الشاى الساخن ! وقال المراجع الكهل :

— صدقونى لم تعرف البلاد حرا كهذا الحر !

— مؤكد أن الحرارة جاوزت الأربعين .

— أو الخمسين ، نحن نحترق فى الواقع .

ورفع المدير عينيه المظلمتين من هبوط القلب وقلب فى الوجوه نظرة نحائية حاقدة وقال :

— ستعود الإدارة بعد الظهر لإنجاز الميزانية ...

أطبق الصمت فلم يناقشه أحد . وهمس كاتب :

— الحقود وجد فرصة للانتقام !

— صبرك ، ل ن يمتد به الأجل حتى منتصف النهار !

وفى الميدان ارتطم مقدم تاكسى بمؤخرة آخر عند إشارة المرور . وغادر السائق المتقدم مكانه ليعاين أثر الارتطام . مال فوق الفانوس الخلفى يسبقه

شعر صدره المتلبد البارز بين شقى قميصه وهو يجفف جيئنه بكمه ، ثم
رمى السائق الآخر الذى لحق به بنظرة ملتبهة فتمتم الآخر :

— وقف التاكسى فجأة فلم ..

فقاطعه بحدة :

— حطمت الفانوس .

فراح يجفف وجهه بمنديل ضارب إلى السواد وهو يقول :

— التواء بسيطة ليس إلا ..

صاح به مطاردا بلسعة الشمس :

— أنت أعمى !

وتماسكا بشدة ثم انهالت اللكمات ، وجاء عسكري المرور جريا وهو
يسب ويلعن .

وتربعت الشمس فى كبد السماء كرة من نار تقذف حمما . وانتشرت
الصفرة الكئيبة الضاربة إلى الاحمرار لطخات متفرقة فى الأديم الضارى .
ونفتت الأرض أطنانا من الحرارة اللافحة المركزة بالبخار ، وانطلقت
الباصات مائلة إلى الجانب الأيمن من ثقل حمولتها ، وتلاصقت الأجساد
البشرية حتى انصهرت فى جسد واحد هائل متعدد الألوان والتقطيبات
متوحد العناء والعذاب ، واستقرت فى الأعين المتطلعة إلى الطريق نظرة
خاملة مستسلمة متقززة متألمة متصيرة .

— العرق يتجمع ويهبط فى خطوط كالخشرات ثم يستقر فى الخداء .

— يوم من أيام الجحيم .

— إذن كيف يعيش الناس فى السعودية ؟

ولسبب ما انفجر السائق فى غضب قاذفا بسيل من اللعنات الفاحشة
فصكت آذان السيدات والأوانس وكأنهن لم يسمعن ألبتة ، وواصلن

وجومهن بلا مبالاة .

وأخذ مرسى صاحبه إلى قهوة وبار آسيا وهو يقول :
— لن تعرف حقيقة اليوم إلا من جرائد الغد ، كم تظن درجة الحرارة ؟
— في الظل ؟

ضحك مرسى عاليا وهو يصفق مناديا الجرسون ثم قال :
— هاك طريقتى المقتبسة عن الإنجليز الذين يعيشون في المناطق
الاستوائية ، أن أشرب حتى تلطسنى الخمر ، هناك لن أفرق بين ديسمبر وبين
أغسطس ..

وقنع عساف وزوجه من الغذاء بأكلة جبن وبطيخ . وتجرد من ملابسه ثم
استلقى — كما ولدته أمه — فوق الكنبه ، وفعلت حرمة مثله فوق الفراش .
على ذلك لم يهنا بالنوم لتسرب العرق المالح من جفنيه وانحداره أحيانا إلى
فيه الفاجر . استيقظ مرات ليجفف وجهه ثم يستغرق في النوم ، ولكنه صحا
أخيرا على ضوضاء وزياط منزعجا حقا . نهض متسخطا فجفف جسده
بالفوطه ومضى إلى الشيش لينظر ماذا يجرى فرأى الغلمان يلعبون الكرة في
الطريق تحت قذائف الشمس ! وخلف الهدف مباشرة نام سائقو الكازو
على الطوار في ظل الجدران . لعن النسل والتناسل ثم رجع إلى الكنبه يتسم
ساخرا :

— يلزنا جهاز تكييف هوا .

فتردد شخير زوجه عاليا .

وانداحت الصفرة الضاربة إلى الحمرة وانثقت منها إشعاعات تحمل
رسائل من الكآبة والضجر . وتصاعد التثاؤب والتأوه . ونفذ صبر ست
عليات زوج بياح الثلج فوضعت ربع لوح ثلج فوق رأسها ، ثم مسحت به
عنقها ، ثم أرسته فوق صدرها طويلا ، ولم تمض ساعة حتى ظهرت عليها

أعراض الحمى .

وأمام قهوة الحرية سقط عبد الرحيم القاضي المصاب بضغط الدم على جنبه ، وصدرت عنه تموجات تشنجية ، وانكمش جانب فيه وسالت منه رغبة ، ثم فاضت روحه .

وحتى العصر لم يطرأ تغير يذكر . خف توهج النهار قليلا . وبهتت الصفرة الكئيبة المنداحة في السماء . ومالت الشمس ولكنها ظلت تصب النيران صبا . وانعددت الرطوبة حول الأجساد مادة لزجة ذات كثافة ملموسة . ومع أن الشعر هو أحب القراءات إلى حسن الزفناوى إلا أنه قال بفتور :

— كلمات .. كلمات ، لا توحى بشيء ، أين ذهب الشعر ؟

فأجابه صديقه حمدي مغمض العينين ملصقا زجاجة الاسباتس بجبينه :

— عبثا تبحث عن شيء له قيمة في هذا اليوم .

— حتى الحب مات !

— وحتى الجنس فقد نكهته الحيوانية الحريفة !

وصادف عسكري الدورية بحى الطبلية عربية خيار يدفعها صاحبها في تراخ فثار غضبه ثم انقض على العربية فنزع مقبضها من يد البياع ورفعها إلى أقصى ذراعه حتى اندلق الخيار على الأرض وصاح :

— ألف مرة قلنا ممنوع مرور العربات !

وصرخ البياع وتجمهر الناس . وانتهب العسكري المنقول حديثا من قسم قصر النيل إلى قسم الجمالية إلى أن التعليمات المطبقة على منطقة قصر النيل لا تنطبق على حى الطبلية ، فشرع بمرج مركزه ، ولكنه أبى أن ينهزم أو أن يعترف بخطئه فصاح مستزيذا من الغضب :

— كيف تسب الدين يا جاحد .. تسب الدين ؟!

وأقسم الرجل بالطلاق ولكن أكثر من قسم بالطلاق ترامت من الأركان والنوافذ . وتابع الحادثة بفتور الواقفون حول مشرب السوييا ، يلهثون ويشربون ويتصببون عرقا ، والذباب يتلاطم فوق رعوسهم . واستقرت أشعة الشمس المائلة فوق الجانب الغربي لعمارة النجمة بجاردن سيتي حيث يقيم إبراهيم سمهان المستشار . واستيقظ المستشار من قيلولته ليجد نفسه غارقا في بحيرة من العرق . هز رأسه في ذهول ونظر طويلا إلى صورة جسده المنطبعة فوق الفراش . كيف حدث هذا ؟ . وماذا يصنع إذن جهاز التكيف ؟ . انزلق إلى الأرض وهو يترنخ في جلبابه الفضفاض ، ومضى إلى الجهاز ، فتبين أنه متوقف . فسد الجهاز أم انقطعت الكهرباء ؟ . وأدار المفتاح الكهربائي فوجد الكهرباء منقطعة . لا شك أنها انقطعت بسبب ارتفاع الحرارة . وهذا يعني أن الفريجيدير أيضا متعطلة ، في هذا اليوم الملعون . وهو وحيد في القاهرة بينا تصيف الأسرة في الإسكندرية ، ولولا اجتماع مجلس إدارة المؤسسة المتدب إليها لما جرى عليه هذا الحظ التعس ، وذهب إلى الحمام وفتح الفريجيدير ليبل ريقه الجاف ولو بشربة فاترة ولكنه رأى صرصورا لاابدا في عنق القارورة الوحيدة التي ملأها بنفسه قبل النوم ! . تحول عنها غاضبا عابسا إلى صنوبر الماء وفتحه ولكنه لم يقطر نقطة واحدة . رباه .. غاض الماء من الأدوار العالية كما يحدث كثيرا في الأيام القاتظة . أي جنون ! . ضائع في صحراء . كم أنه ظمآن ، وكم أنه متلهف على دش بارد ! . وغادر شقته في الدور الثامن إلى الطرقة الخارجية . المصعد متوقف طبعاً . كل شيء متوقف خرب في هذا اليوم الجهنمي . ونظر من فوق الدرايزين وصاح بأعلى صوته :

— عم محمد .. عم محمد ..

لا يجيب . وكرر النداء دون جدوى . رباه ما العمل . ظمآن وحران

(بيت سبي السمعة)

ولا بد أن يذهب إلى المرحاض أيضا . وإذا به يرى خادماً الشقة التالية له وهو يصعد خطوة فخطوة ، ينوء بحمل صفيحة مملوءة بالماء . وأنزل الخادماً الصفيحة على أرض الطرقة حتى يسترد أنفاسه . وقف شاحب الوجه بصدر يعلو وينخفض . ونظر المستشار ناحيته فتبادلا نظرة طويلة وهما صامتان . وضمن المستشار نظراته رجاء مستحيلاً فتجاهله الخادم وأرخصي جفنيه زائغاً مما قطع بأنه تلقى الرسالة ورفضها . له حق فليس في الإمكان أن يكرر عمله الفدائي مرتين ولكن ما العمل ؟ . ونظر المستشار إلى الماء المترجرج في الصفيحة الناصعة فازدرد ريقه الجاف بصعوبة ، ثم همس وهو يتسمم متوددا :

— تسمح لي بملء كوب ؟

فقال الخادم باستحياء :

— تفضل يا ييه !

وهرع إلى الداخل ثم رجع بكوب فملاًه ، وصبه في جوفه دفعة واجدة ! وجعل يستشعر الماء وهو يرشح من مسامه ، ثم تتم :

— ماء دافئ .

— ينصب من الحنفية كالنار ..

وتذكر مطالبه الضرورية الأخرى فاستأذن في ملء الكوب مرة أخرى فأذن له الخادم بتسليم لا حيلة فيه . ورجع إلى الشقة وهو يقول ساخطاً « بلد غير مستعد للحرب مع أن ثلاثة أرباع عامه صيف ! » .

وتوارت الشمس في المغيب وراء ستار دموى ولكن الجو لم يتحرر من قممته المنصهر . وأذاع الراديو أنباء الموجة وتفسيراتها الفلكية والدرجة الثامنة والأربعين التي بلغت في الظل . ورقدت المدينة في هود تحت العذاب الأعبر . وانتظر أحمد عند جسر الجلاء حتى وافته إليه نادرة في

— ١٧٩ —

فستان رمادى عارية الذراعين والساقين .

— ماذا فعلت اليوم ؟

فأجابت وهى ترعش راحتها المبسوطة فى استفظاع :

— أوه .. يوم لن ينسى ..

ذهبا إلى مجلسهما المعهود بالكورنيش ولكن الشاطئ كان مكتظا بالبشر
لا موضع فيه لإنسان . اقترح أن يمضيا سهرة فى سينما مكشوفة ثم يعودا إلى
النيل بعد منتصف الليل . ولما رجعا لم يكن الشاطئ قد خلا ولكن كان ثمة
موضع . واقترشا الحشائش بعد أن أزالا عنها قشر الفول ومزقا من الورق ،
ولم يكن فى الجو نسمة واحدة .

— مات الهواء !؟

فأجاب بضيق :

— شىء أتمن منه مات فينا .

— لن نحتمل يوما آخر كالיום .

ومضى المكان يخلو بسرعة نسبية حتى وجدا نفسيهما منفردين .
أخيرا . ولف ذراعه حولها فشعر فى جنبه بسخونة وفغمت أنفه رائحة عرق
فاتر . وانعكست أضواء الفوانيس على ماء ساكن راكد لا يلعب ولا يهبج :

— إذن متى تنكسر حدة الحرارة ؟

— آه .. متى ؟

ونخيل إليه أن حرارة الحب تزدرد حرارة الجو بسرعة لم يتوقعها ، غير أن
قدما ثقيلة دقت الأرض فى الظلام الصامت . ومن الظلمة المضاعفة التى
تلقيها شجرة وارقة مر شبح العسكرى فى ضوء المصباح . تعلق به رأسهما
ثم همست :

— لا يوجد أحد غيرنا ..

— ١٨٠ —

فشبك راحتيه حول ركبته وغمغم حانقا :

— يوجد الحر ..

— لا تعط له فرصة للتحرش ..

مر العسكرى أمامهما وهو يرميها من عل بنظرة غامضة . ابتعد حتى
أوشك أن يخنفي ولكنه توقف . وتنحنح . ثم استدار راجعا حتى وقف على
مبعدة مترين أو ثلاثة . لبث واقفا فى عناد كأنه الحر دون أن ينبس . توقعا أن
يقترب أكثر أو أن يتكلم ولكنه لم يفعل . ولكزته بكوعها هامسة : « هيا » .
قاما معا ، وألقيا نظرة أخيرة على الماء الراكد ، ثم ذهبيا .

وشىء غريب كريبه زحم الجو ، ذو رائحة مريضة وشخصية مبهمه ، وقد
انعقد حول مصاييح الطريق كالضباب ، وانتشر تحت النجوم فتراءت
خايبه . وتحرك العسكرى ببطء شديد ، وبصق ، ثم تتم :

— قلنا إنه يوم نكد حتى قبل أن تشرق الشمس !



مر العسكري أمامهما وهو يرميها من عل بنظرة غامضة .
ابتعد حتى أوشك أن يختفي ولكنه توقف ، وتنحج .

عابرو التيميل

اندج الشارع الكبير في حياة هؤلاء الناس . شارع قصر النيل . ما بين السابعة والثامنة صباحا يقطعونه ثم يتفرقون إلى أماكن أعمالهم . وتكرر الرحلة في نظام فلكى على مر الأعوام . بدأها كثيرون وهم في ريعان الشباب والفتوة وواصلوها حتى أدركتهم الشيخوخة وتحاللت لأعينهم النهاية . ومنهم من ينقطع دون سبب معروف للآخرين إذ أنهم يتراقون في الطريق ولكنهم لا يتعارفون . والعين تلقى نظرة عابرة فلا تكاد ترى ، كأن الآخر شجرة مغروزة في الطوار ، وربما استيقظت لسبب ما فترى بدهشة العوالم الغريبة الماضية في سبيلها ، كل عالم وحدة من الأسرار والأفراح والأتراح لا تدرى شيئا عن الآخرين ، ولا تجد وقتا للتعرف إلى ذاتها وتجهل كل الجهل مصيرها ، عند ذلك تتفجر الألسنة في غزارة ولكن تشح الأجوبة حتى الإرهاق ، وتشمخ السماء بصفحتها — الصافية أو الملبدة تبعا للفصول — فلا تشفى غليلا ولا تبدد حيرة .

ثابر على تلك الرحلة ثلاثة أشخاص ، رجلين مصريين وامرأة أفرنجية . بدأها الرجلان حوالي عام ١٩٢٥ ثم ظهرت المرأة بعد ذلك ببضعة أعوام ، وكانوا في ذلك شابين وشابة . وكان أحدهما طويلا نحिला يتميز بعينين حادتين وسمة غامقة وحركات عصبية ، أما الآخر فكان معتدل الطول والقدهادى الطبع . وبدت الفتاة متعة للبصر بعينها الزرقاوين وشعرها الفاحم وبشرتها الخليبية وجسمها الرشيق . وكانت — كذلك الشاب الطويل — يسيران في اتجاه ميدان الأوبرا ، أما الشاب الآخر فیتجه نحو ميدان سليمان باشا ، ويتقابلون عادة في منتصف الطريق أو نحو ذلك ، ولم يترك أحدهما فرصة للقاء إلا ويملا من الفتاة عينيه ، المعتدل يرمقها بحياء وبلا غاية إلا إبهاج الروح

والحواس ، أما الآخر فيلتهمهما بنظرة حادة ، ليست نظرة ولكنها كلام وفعل وعريضة ، ورئى مرة وهو يجيها وهي تتجنبه مبتعدة عنه مسرعة ، ذلك أنها كانت فيما بدا فتاة جادة نشيطة تنطلق بمجدية وعزم العاملات ، لا تكاد تنظر إلى غير الطريق ، وإذا التقت عينها بعين الشاب المعتدل فبالقدر الذى يحتمه حب الاستطلاع أو ملايسات المشى فى حدها الأدنى . وجعل الشاب المعتدل يسترق النظر إلى الآخر بامتعاض ، ويتابع مناوراته بمنق وإشفاق متوقعا أن يراه ذات صباح والجميلة تتأبط ذراعه . وبقدر ما كان يعلن قحته بقدر ما كان يعجب بها على نحو خفى ، ويتمنى فى أعماقه بعضا منها ، وأحزنه جدا أن يتفق اتجاههما فى الطريق على خلاف اتجاهه . ومضت الكواكب الثلاثة فى مداراتها دون أدنى تغير فى علاقتها المشتركة ، أما عن كل فى ذاته فقد تتابع ظهور خواتيم الزواج فى أيديهم ، سبق المعتدل وتبعه فى نهاية العام الطويل وأخيرا لحقت بهما الحسنة . ورغم ذلك فلم يقل الشغف بها كثيرا وإن بدا أن الطويل قد تخلى بصفة شبه نهائية عن أحلام المغامرة . ولم يتغير شىء مما بين الثلاثة عندما قامت الحرب العالمية الثانية وإن تكن الدنيا قد اندفعت بجنون نحو التغيرات الفادحة . زخرقت الصحف بعناوين المعارك الحمراء ، وتناقل المارة الأنباء المثيرة ، وظهر الإنجليز المدنيون والعسكريون بكثرة حتى فى تلك الساعة المبكرة ، وفتح ثلاثة بارات فى الشارع العتيق ، وانتقلت عدوى التغيير إلى الفتاة نفسها أسوة بالدنيا من حولها ، فثقلت مشيتها وشعب لونها ثم تكور بطنها وانداح تحت الفستان التقليدى المسترسل بلا حزام ، أجل لقد حبلت العروس الفاتنة . وتفحصها الطويل بعين صقر وبشئ من الغيظ متذكرا امرأته ولكن امتلأت عيناه بالعطف والشرود الغامض . وحبلت المرأة مرة ثانية قبيل انتهاء الحرب . وثالثة أيام حرب فلسطين ، ولعل أحدا من الثلاثة لم يكن يفطن حقا إلى الزمن إلا عندما يقع بصره على الآخر . امتلأ عود الحسنة وتوارى فى الذاكرة القدر الرشيق

المشوق ، وأحدقت بالعينين الزرقاوين أنصاف دوائر خفيفة لم تعد تخفى ، واستقرت بهما نظرة رزينة ، رزانة الإعياء لا رزانة الدلال والصدود التي عرفاها قديما . واشتد نحول الرجل الطويل وجرى المشيب في سوافه وشاربه وبرزت عظام وجنتيه ، ومع أن المعتدل لم ير من تغير ذاته سوى شعيرات بيضاء إلا أنه لم يشك في مدى تغيره الحقيقي كلما نظر إلى رفيقه فانطوى صدره على توتر غامض كأنه صدى بعيد جدا لما يقع حوله في التاريخ والطريق . واستمر دوران الكواكب الثلاثة خلال أحداث جديدة ، فقد نشب في القتال قتال مرير واندلع حريق القاهرة ثم انفجرت ثورة يولية . تزلزل المجتمع من جذوره وانهار البنيان المتداعى وأخذ نظام جديد في التبلور ، وإذا بالاعتداء الثلاثي يعترض الطريق كثور أعمى . وفي أتون حرب العدوان قدر لأولئك الثلاثة أن يجتمعوا في مكان واحد لأول مرة . فقد انطلقت زمارة الإنذار وفرقت المدافع وهم يسرون أمام مشرب لاجيون . لجأ ثلاثتهم إلى المشرب بان دفاع عفوى فوجدوا به خادما واحدا يغسل أرضيته ، ومائدة واحدة صالحة لاستقبالهم في أقصاه . شقوا سبيلهم إليها خلال قوائم من الكراسي المتراسة فوق بعضها ، ثم وقفوا مترددين قلقين ، ثم جلسوا — بدعوة من الخادم — حول المائدة المنفردة . وكلما ترامى انفجار تبادلوا نظرة باهتة دون أن ينبس أحدهم بكلمة ، وكان الطويل أجراًهم على خرق جدار الصمت فقال :

— ولا أيام الحرب العالمية ..

فقال الآخر بحنق :

— المجرمون !.. سرعان ما نسوا هوانهم تحت أقدام هتلر !

وتواصل التعليق دون أن تشترك المرأة فيه ، ثم خف الضرب درجات فعاد

الطويل يقول :

— لا مدعاة للخوف فهم يضربون الأهداف .

وحدجته المرأة بنظرة جائعة للتصديق فابتسم إليها . تبذت عن قرب معتلية ذروة النضج الأثوى وإن شارف حسنها الوداع . وقال الطويل مدفوعا بأريحية طارئة :

— خير ما نفعل أن نتناسى ما يقع في الخارج .

ثم وهو يبتسم عن طاقم نضيد :

— نحن نتقابل كل صباح منذ زمن بعيد جدا كالحلم ..

تفكر الآخر مليا ثم قال :

— منذ عام ١٩٢٥ .

فالتفت الطويل نحو المدام وقال :

— المدام ظهرت بعد ذلك ؟

انزعجت نفسها من التركيز المفعم بالقلق في الخارج وهزت رأسها بالإيجاب .

— عمر طويل مر دون أن تتبادل كلمة واحدة .

وضحك ثم استطرده :

— لذلك لا أعجب لخصام أمتين أو ثلاث !

وساءلت المرأة نفسها بتوتر :

— متى ينتهى الضرب ؟

فقال بلهجة ودية جدا :

— لا تخافى يا مدام ، سينتهى الضرب عاجلا ويذهب كل منا إلى طريقه

ولكنى أود أن أنتهز هذه الفرصة لأحقق فكرة جميلة خطرت لى الآن فقط !

نظر إليه المعتدل مستطلعا فى غير حماس على حين نظرت المرأة فى ساعة

يدها .

— سوف أحال على المعاش بعد شهر واحد ، أى أننى سأنقطع عن

رؤيتكما بعد تلك العشرة الطويلة العزيزة ..

فقال الآخر :

— وأنا أيضا سأحال إلى المعاش في نهاية هذا العام .
 — هذا أدعى إلى تحقيق الفكرة ، وهى أن نحتفل بذكرى لقائنا الطويل على
 مدى أكثر من ثلاثين عاما !
 وقلب وجهه بينهما في حماس وقد أخذ الهدوء يخيم في الخارج رويدا وإن
 لم تطلق بعد زمارة الأمان ، ثم قال :
 — أود أن أدعوكما إلى عشاء بسيط بمطعم كريستم بالهرم ، ما رأيك
 يا أستاذ ؟

فقال الآخر بنبرة سلبية :

— بكل سرور إن سمح الوقت !
 — ستقبل الدعوة حتما خصوصا إذا قبلتها المدام ، ما رأيك يا مدام ؟
 انتزعت المدام نفسها من قلقها مرة أخرى وتمتعت :
 — لكن ...
 — لا لكن البتة ، إنه سلوك لا عيب فيه عندكم ، ودعوتى واضحة البراءة ،
 ورفضها غير إنسانى ...

ابتسمت ابتسامة خفيفة اعتدها الرجل قبولا فبادر يقول :

— شكرا ، ستفق على الميعاد فى صباح قريب .
 اتفقوا على الميعاد صباح اليوم الثالث لوقف القتال . وتقابلوا فى ميدان
 التحرير ثم استقلوا تاكسيا إلى كريستم فبلغوه قبيل الغروب . وفى أثناء ذلك تم
 التعارف بينهم فقدم الطويل نفسه قائلا « على بركة ، مترجم » وقال الآخر
 « سيد عزت ، مدير حسابات » وقالت المدام « مدام ماتياس ، خياطة فى
 ماى ستار » . وجلسوا فى حجرة خاصة يحجبها عن بقية المحل باب موارب

يقوم خلفه برفافان . وأوصى على بركة على عشاء حمام وكبد وأمر بكونياك .
ونظر إلى سيد عزت ورفع كأسه قائلاً :

— لنشرب نخب شباب عام ١٩٢٥ ، أما أنت يا مدام فما زلت شابة !
فقالت ضاحكة :

— لا .. لا .. لا فائدة من الكذب ، أنت تعرف وهو يعرف .
وما كادت الكئوس تفرغ حتى طلب غيرها وهو يقول :

— لا ترفضا ، دعونا نشرب ، لن نسكر على أى حال ، وهى ليلة العمر .
ومضت الألفة نحل محل التحفظ ، ويشيع الدفء بتأثير الكونياك ولباقة على
بركة وحيويته . وراح يقول :

— كان يجب أن نكون أصدقاء حميمين ، يتبادلون المودة والأسرار ، ولكن
فات الوقت للأسف ، فلم يبق لنا إلا أن نذكر شيئا من الأمور الجوهرية جدا
لتمام التعارف ، أسعد حادث فى حياتنا مثلا أو أبقاه أثرا فى نفوسنا !؟

رحب سيد عزت بالاقتراح لا لشيء إلا لأنه يجد ما يقول ، فقال :

— لعل أسعد حادث صادفتى هو نجاح ابنى الأكبر فى الثقافة العامة بعد
ما يشبه اليأس ..

ونظر الرجل إلى المدام مستطلعا كأنما كانت هى الهدف الحقيقى لاقتراحه
فابتسمت قائلة :

— زواج ابنتى الكبرى ، ولكن الحادث الذى لا أنساه هو وفاة زوجى منذ
أربعة أعوام .

كاد التهلل للخبر يفلت من أساريره لولا أن تداركه بتقطيعة مصطنعة ثم هز
رأسه فى رثاء . وانتهاز فرصة الصمت الذى تلا ذلك فطلب الكونياك لثالث
مرة ، ثم ضحك مفتتحة صفحة جديدة وقال :

— أحداثى أنا لا تخلو من غرابة ، فأسعدنا كان وفاة قريب آلت إلى تركته ،

وأتعسها جاءني منك أنت يا مدام !

— أنا !

— أجل وأنت تعرفين السبب .

فقالت متشجعة بفعل الكونياك الخفى .

— تعنى مطارداتك لى فى الشارع ؟

— أعنى إعراضك عنى حتى قبل الزواج .

— يا عزيزى ، أنت لم تكن جادا ..

— كيف عرفت ؟

— أنا أفهم ، أنت لم تكن جادا ..

وقال سيد عزت وهو يفرغ ثمالة كأسه :

— أنا موافق .

— أنت أيضا !، هل اختفت نواياى الطيبة إلى ذلك الحد ؟

— لم تكن هناك أية نية طيبة !

— وأنت ؟!، كنت تأكلها أكلا وتأكل نفسك !

فقال سيد عزت بتسليم :

— لا أنكر ذلك !

ضحك الرجل فى شماتة أمام مدام ماتياس فقالت :

— لا أصدق .

— لماذا ؟

وجاء العشاء مع جديد من الكونياك فأقبلوا على الطعام والسؤال معلق

والاهتمام به يعمق إلى غير نهاية ، وقالت مدام ماتياس وقد احمرت أذناها من

الشراب :

— لى معك حكاية .

— أنا ؟!

— كنت تنظر بقوة ، كل صباح ، قلت لنفسى حتما سيكلمنى يوما ما !
— حسبتك لم تلحظى شيئا ألبتة !
— هه ! ، قلت سيكلمنى ، وما أخره إلا أنه مؤدب أكثر من اللازم على
خلاف ..

قاطعها على بركة بضحكة عالية هاتفا :

— على خلاف الآخر قليل الأدب !

وهى تضحك أيضا :

— لا .. لا .. معذرة .. (ثم ملتفتة نحو سيد) .. واعتبرت المسألة
مفروغا منها للدرجة أننى فاتحت ماما فى الموضوع ولكنها رفضت بشدة فكرة
زواجى من مصرى !

صاح سيد عزت الذى أفقدته لذة الحديث لذة الطعام :

— الزواج ؟!

— نعم وبسببك زعلت من ماما فأقمت مدة عند خالتى ..

ابتسم سيد فى ارتبائه حياء وسرورا كما كان ينبغى أن يفعل عام ١٩٣٠ وإذا
بعلى بركة يلكزه فى ذراعه قائلا :

— ضيعت علىّ فرصة دون أن تنتفع بها ، صدق من قال إن رجال

الحسابات معقدون إلى النهاية !

تمم سيد عزت :

— لم أكن أعرف ! ، كنت يا مدام جادة جدا بصورة غير مشجعة .

— هكذا نصحتنى زميلة لى فى ذلك الوقت بماى ستار ، كانت يهودية
مولودة فى مصر ، قالت لى إن المصريين يعشقون المرأة اللعوب ولكنهم
لا يتزوجون إلا المتحفظة !

صاح على بركة بقم مكتظ بالحمام :

— نعم النصائح اليهودية !

فخاطبت المدام سيد عزت قائلة :

— لكنك لم تتكلم ، حتى لم تحاول الكلام .

قال بارتياح :

— كنت دائما أخاف من الإفرج !

— تخاف !؟

— نعم ، شيء قال لي إنك مستحيل لأنك إفرنجية ، وكلما فكرت في

الكلام عقد الخوف لساني .

على بركة وهو يضحك في تهكم :

— مفهوم .. مفهوم .. اللائحة المالية لا تسمح بحب بين مصرى

وإفرنجية !

— وكان مرتبى محدودا وكانت فكرتي عن الحب أنه باهظ التكاليف !

قالت المدام وهى تهز منكبيها :

— انتظرت حتى خجلت من نفسى ، ثم كان أن تعرف بي مسيو ماتياس .

فقال على بركة معاتبا :

— انتظرت الصامت وصددت المتكلم الفصيح !

انتهى العشاء ولكن الشراب لم ينته . وتجلت آثاره في الحدود والأعين

والألسن وارتفع الضحك .

وهتف على بركة بنيرة الظافر باقتراح سعيد :

— عندى فكرة !

فنظرا إليه مستطلعين فقال :

— لنرقص !

قال سيد عزت :

— لا أعرف الرقص .

وقالت المدام :

— ولا توجد موسيقى .

قال « لا بهم » وقدم لها ساعده فقامت مليية ، وأحاط خاصرتها بذراعه وراحا يرقصان . وإذا به يضمها إليه حتى التصقا تماما . حاولت أن تتخلص منه عبثا . وتساءل سيد عزت في ذهول :

— أى رقص هذا ؟!

وقالت المدام في إعياء :

— من فضلك .. عن إذنك ..

تمادى الرجل في فعله وانعددت في عينيه نظرة مخيفة فصاح سيد عزت :

— خذ بالك !.. المدام تعبانة ..

فقال بحدة :

— نحن هنا لا يدرى بنا أحد !

— ابعد .. دعنى ..

وقام سيد عزت . وبقيامه تأكد من أنه ثمل حقا . وضع يده على كتف

الكهل الطويل وقال برجاء :

— على يه ، اعقل ، لا تفضحننا !

فصاح به وهو يزج يده بحركة من كتفه :

— اعقل أنت ، سيأتى دورك يا غبى !

وتأوهت المرأة متألمة فهتف سيد بغضب :

— دعها .. أقول لك دعها .. ألا تفهم ؟

وأمسك بذراعيه محاولا فكهما . جذبهما بأقصى ما استطاع من قوة .

(بيت سبى السمعة)

انضغطت المرأة بينهما حتى استشعر بضاضتها . تراجع خطوة وهو يضاعف من قوة جذبته وقد لفحه خجل آثم . وصاح على بركة بجنون :

— ابعد وإلا ..

— ستوقعنا في فضيحة !

وهتفت المدام :

— سأصرخ .. أقول لك إنى سأصرخ !

ودار سيد عزت حولهما حتى وقف وراءه فقبض على عنقه وشده منه بلا رحمة حتى كاد أن يختنق فتراجع إلى الورااء كالمتهوى . وترنحت المدام ثم انحطت فوق الكرسي مغمضة العينين . ولم يعد يسمع إلا هائهم . خلا كل إلى نفسه يضمم جروح روحه . المدام كالنائمة وعلى بركة مائل إلى الجدار وسيد متقلص الوجه من الغثيان . وقال على بركة بمقعد :

— لن أدفع حساب أحد !

مدت المدام يدها إلى حقيبتها ولكن سيد عزت أمسك بها بجنون وهو يقول له :

— لن يدفع لنا أحد .

ورجعوا إلى الصمت والإعياء . ثم خطرت لسيد فكرة فنادى الجرسون وقال له : « كأسان من فضلك » وقبل أن يختفى الرجل وراء البرافان قال له على بركة : « ثلاثة من فضلك » . وشربوا هذه المرة وكأنهم يتداون ، في صمت وبلا مرح . وراح على بركة يقطع الحجره ذهابا وجيئة . ثم غادر الحجره فغاب دقائق ثم عاد بوجه مغسول وأسارير هادئة . ونقل بصره بينهما ثم قال :

— دفعت الحساب ، كله ..

فاحتج سيد عزت قائلا :



وقبل أن يختفى الرجل وراء البرافان قال
له على بركة : « ثلاثة من فضلك » ..

— لا !

— دفع وانتهى الأمر .

ثم بنيرة أرق :

— لننس ما كان ، هذا خير ما نفعل .

وابتسم فيما يشبه الاعتذار . واقترب من سيد قائلاً « هات رأسك » ولثم جبينه قبل أن يفتن الآخر إلى ما يريد وتحول إلى المدام مغمضاً : « وهاتي رأسك » ثم لثم جبينها دون مقاومة من ناحيتها : وقال ووجهه لم يزل في مستوى وجهها :

. — آسف يا مدام .. الصلح خير !

وفجأة لثم فاهاً . ثم استقام متراجعا وهو يقول :

— قبلة الصلح ، وتحية للحلم القديم ، حلم تراءى لي قبل موت سعد زغلول !

على ذلك غادروا المحل . وأمسك يسراها داعياً الآخر للإمساك بيمنها وسار ثلاثتهم في جو مائل للبرودة . والقمر متوار وراء سحابة مفضضة . وتراءى الخلاء في ظلام حتى الأنوار المتباعدة الباهتة فوق المقطم كعقد من النجوم . وضحك الرجل وقال :

— فلتذكر أغنية جميلة يعرفها ثلاثتنا لنغنيها معا ؟

یومِ حائِض

— لا ..

قالها بجدّة وهو يقطب ، ثم رشف رشفة من قدح الشاي . وركز عينيه في القدح ليتجنب عيني زوجته ولكنها قالت محتجة :

— كنت متوقعة هذا الرد !

— حسن ، لم تعفى نفسك منه ؟

— لأن المرأة مسكينة حقاً .

قال وهو يهز رأسه هزة الخبير بالعالم والناس :

— شياطين خبيثاء .

— اقرأ العريضة لعلك تفتنع بأنها مظلومة حقاً .

— قلت شياطين خبيثاء .

— أنت تعلم أن زوجها وهب الوزارة عمره كله فلأسرته حق في المساعدة

التي يميزها القانون :

— وهب الوزارة عمره ! ..، اعلمى أن تسعين في المائة من موظفي الحكومة

نباتات طفيلية تتغذى بدون وجه حق .

— متى تغير بالله من طبعك ؟

رمقها بنظرة باسمة باردة لا يمكن أن تثبت أملاً فحل صمت غير قصير ، ثم

سألها بنبرة جديدة وهو يقوم عن المائدة :

— كيف حال الولد ؟

فلم تجب احتجاجاً ، ولما كرر السؤال قالت باستياء :

— نام ليلة أمين نوما هادئاً ولكن الحرارة ما زالت مرتفعة .

واستقل سيارته وهو يأمر السائق قائلاً « جروني » . انطلقت السيارة

تقطع الكورنيش مخلفة وراءها المعادى . وفتح الجريدة فتصفح العناوين الكبيرة بسرعة حتى استقر بصره فوق صفحة الوفيات . طالع أسماء الراحلين أما الأقارب فسكرتيره الخاص يتولى أمرهم . متى يطالعك اسم على كامل بالخط العريض ؟ . سوف تشيع جنازته بكل إجلال وتؤدي له جميع الواجبات ولكن متى ؟ . ذلك الرجل العنيد المصاب بتصلب الشرايين . وهو يعانداك ويتوهم أنه يحافظ على كرامته وكأنه لا يخشى قوتك التي يعمل لها كل إنسان ألف حساب فمتى ؟ . كما قرأت يوما اسم حسن سويلم . في مثل هذه الجلسة في نفس السيارة في نفس الطريق . يومها بدأت بالنظر في صفحة الوفيات فكان اسمه أول ما وقع عليه بصرك . البقاء لله .. حسن سويلم .. مراقب عام الإيرادات . متى يا على كامل ؟

— انظر أمامك !

صاح بالسائق بعنف فحول الرجل عينيه بسرعة عن أسراب حمام تطير فوق سطح النيل كسحابة بيضاء . واكفهر وجهه لحظات ثم انبسطت صفحته رويدا . آخر مشاحنة جرت بينك وبين المرحوم حسن قبل وفاته بشهر . يا حسن بك . أنا الذى يقرر متى يجب تقديم مشروع الميزانية . ولكن ذلك من صميم اختصاصى يا كريم بك . آه ... لا تضطرنى إلى سحب العمل من يديك .. أنت تعرفنى جيدا . إذن اسمح لى أن أحتج على هذه المعاملة فلست أنا بالموظف الصغير . لو امتد به الأجل لكان اليوم منافسك الأول دون منازع . ولكن الجسم الفاسد لا يخلو من دامل . ها هو على كامل ذو الشرايين المتصلبة ، ماذا يريد ؟ .

وقفت السيارة أمام جرونى فغادرها ثم دخل المحل . أجال بصره فى أنحاء المكان حتى رأى الأستاذ على فمضى إليه ثم صافحه بجمرة قائلا :
— صباح الخير ، تهاى على مقاتلك الأخيرة .

— أعجبتك حقا ؟

كرر إعجاباه وهو يجلس . وطلب قهوة وهو يتسهم ابتسامه ذات معنى فقال
الأستاذ :

— الظاهر أنك وفقت ..؟

دس يده في جيبيه الداخلى فأخرج مظروفا سلمه للأستاذ وهو يقول :

— قبلة العام !

— حقا ؟

— سوف تنفجر تحت أقدام نسيم البحيرى المأفون المغرور .

— أنت متأكد من صحتها ؟

— وثائق لا يرتقى إليها شك .

— لا أريد أن أعرض الجريدة لقضية خاسرة !

— الله يعلم كم كلفنى الحصول عليها من حيلة ومال .

— إن لم تقض على البحيرى فستقضى علىّ !

— ستقضى على البحيرى وحده .

تبادلا نظرة طويلة ثم قال كريم :

— سيكون نصرا للجريدة !

— ولك أنت .

ضحك كريم ضحكة أضخم بكثير من جسمه النحيل الدقيق فتمتم

الصحفى باسم :

— أنت رجل مستقيم ونظيف فلا يهمنى أن أرمى بعد ذلك بالقسوة .

وقرأ فى عينى الصحفى نظرة لم يفهمها تماما فقال :

— أنت أيضا تكرهه .

— سأنشر الوثائق للمصلحة العامة ولا دخل لعواطفى فى ذلك .



دس يده في جيبه الداخلي فأخرج مظروفه سلمه للأستاذ

— حسن وأنا أخدم المصلحة العامة بطريقتي كذلك .
وقام ماداله يده فصافحه وهو يسأله عن صحة ابنه فقال وهو يمضي عنه :
— لا بأس به ولكن الحرارة ما زالت مرتفعة ، شكرا لسؤالك عنه ..
استقل سيارته إلى مكتب الأستاذ يوسف عبد الرحمن الحمami الذي استقبله
بترحاب وهو يقول :

— مبارك يا كريم بك ، قرأت اسمك أمس بين المرشحين .

— شكرا يا عزيزي ، خبرني عن جلسة أمس .

— تأجيل لتقديم مذكرات .

— وماذا عن مركزنا ؟

— عال جدا ، أنا مطمئن كل الاطمئنان .

— إذن سيركع فهمي الدسوقي ؟

— أجل ، ولكن ثمة جديد .

— ما هو ؟

قال الحمami بصوت أخفض درجة :

— تلويح بالصلح !

— صلح !!

لفظها كذباية فقال الحمami :

— سوف تتمرم شروطك بطبيعة الحال .

— ولو !

— وهو على أي حال ابن عمك .

— هذا مبرر للعداوة .

— أهذا هو رأيك الأخير ؟

— حتى النهاية .

وذهب إلى مكتبه بالوزارة ثم طلب في التليفون رقما .

— ألو .. على ؟ .. صباح الخير .

.... —

— عندي لك خبر مهم جدا ..

.... —

— اقرأ غدا صحيفة الكوكب .

.... —

— نسيم البحيرى قضى عليه إلى الأبد .

وضحك طويلا حتى ارتجت لضحكه أر كان الحجره الكبيره الصامته .

واستقبل مدير مكتبه الذى عرض عليه البريد وبعض الموضوعات العاجلة .

وجاء على أثره على كامل فنبادلا الآراء فى مسائل شتى ووجهاهما يعكسان برودا

سافرا . وعندما وقف على كامل استعدادا للذهاب سأله كريم بدافع شيطاني

مباغت :

— كيف الصحه ؟

فأجاب الآخر فيما يشبه التحدى :

— لم تكن شرابيني فى وقت من الأوقات خيرا مما هى الآن .

عنيد مكابر كذاب . وجهك الشاحب المتغضن يفضحك . وعمًا قليل

ستعتذر عن تخليفك الاضطرابى عن اجتماعات المساء . على كامل ،

البحيرى ، الدسوقى ، وعشرات غيرهم . كائنات نخرها السوس فلم يبق منها

إلا على عناد وحقد . أنت بحاجة إلى مدفع سريع الطلقات لتطهر منهم الحياة .

وسوف تنتصر كما انتصرت دواما . حياتك سلسلة من المعارك متوجة

بالانتصار . فى ذلك متعتك وكرامتك فى الحكومه أو النادى أو القرية . منذ

نشأتك الأولى وأنت مناضل كأنك تعيش فى حلبة ملاكمة . النضال هو روح

الحياة وسرها أما القيم المسولة الخرعة فهي آفات الحياة . والرجال يضمرون لك إعجابا لا حد له وإن رددت ألسنتهم خلاف ذلك فعن خوف أو حسد . حتى الوزير نفسه استدعاه يوما وقال له :

— يا سيد كريم لماذا تثير الزوابع دائما ؟

فتساءل بأدب واعتزاز معا :

— سيدى الوزير هل أنا رجل صالح للعمل ؟

— لم أظن في ذلك أبدا .

— ونظافتى ؟

— على خير ما يرجى .

— وعند الخلاف مع الآخرين أين تجد سيادتكم الحق ؟

— ولكنك تغالى في العنف حتى لينقلب الوضع فكأن الحق مع خصمك .

— هكذا خلقنى الله !

فقال الرجل بنبرة لم تخل من ضجر :

— حتى العنف في الحق يجب أن يقف عند حد .

وعند الظهر رأس اللجنة المالية . وتفانى في العمل كعادته فلم ييأس بالوقت . ومرت ساعتان عقب وقت الغداء وهو يجتلس من حين لآخر النظر إلى الوجوه المتعبة المتألمة ، ويتربص بكلمة تدمر أو شكوى . وفي صدره لعبت عواطف ماكرة كشقاوة الأطفال . ولما أشبع طاقته في العمل والتعذيب فض الجلسة . واتصل بزوجته بالتليفون فسألها عن الولد :

— لا بأس به ولكنى استدعيت الطبيب لأن الحرارة لا تريد أن تنخفض .

— بخير إن شاء الله لن أعود قبل العاشرة مساء بسبب العمل !

وفكر في مسألة مرض الأطفال وهو يتناول غداءه بالنادى . قال إن الأطفال

ما كان يجب أن يمرضوا على الإطلاق . المرض — إذا لم يكن منه بد — فهو

ظاهرة تطراً على الجهاز البشرى عقب طعونه فى السن أما الطفل فلا يمرض إلا للخلل فى الكون . وقد كان — هو — سليماً عند الزواج كما كانت كذلك درية زوجته ، وولد رمزى آية فى الصحة والجمال فما معنى المرض إذن ؟ ومضى إلى حجرة التليفون فانبسطت أساريه لأول مرة ، لأول مرة سرت ابتسامه فى غضون الوجه الصارم الكالخ :

— آو .. هنومة ؟ .. كيف الحال ؟

....

— عال ، هذا يعنى أنه لن يعود اليوم ؟

....

— إذن نتقابل فى السابعة ؟

....

— اعملى حسابك على ساعتين على الأقل ، إلى اللقاء يا محبوبه !

واستقل السيارة وهو يقول للسائق « بار الأنجلو » . سيمكث هنالك ساعة ثم يمضى إلى هنومة . امرأة مثالية فى غرامياتها . وزوجها البدين يتوهم أن البدانة يمكن أن تجعل من رجل زوجاً موفقاً . وهو يجىء إلى بار الأنجلو فينهمك فى لعب الطاولة مقامراً بمبالغ ضخمة ، ومرة قاوم إغراء غريباً بصفعه على ففاه . أما البحرى فموعه الغد . سوف يصعق عند مطالعة الجريدة وإذا انتحر فسيثبت بانتحاره أن سوء ظنه به لم يكن صواباً على طول الخط . واضطر السائق إلى ركن السيارة ليتم طريقه مشياً على الأقدام . سار فوق الطوار بجسمه انحيل الدقيق يطالع الدنيا بوجه صارم شبه متقزز . ومر بمحل لبيع التحف اليابانية فدخله دون سابق تفكير لابتياح هدية لهنومة . اختار شيشياً مناسباً تماماً للاستعمال فى مسكنهما السرى بالهرم . وواصل مسيره نحو البار . وعند أول منعطف قبل المقهى ، وعقب نزوله من الطوار مباشرة ، وجد نفسه مدفوعاً

نحو غلام يبول فتراجع بسرعة هاتفا « يا ولد يا كلب » . كان الغلام يبول في
 علانية استعراضية ، وشقاوة وشت بسزوره بما يفعل . وقد انطلق البول
 متألثا تحت أشعة الشمس في هيئة قوس والغلام يدفعه بحركاته الذاتية إلى أقصى
 مدى يستطيعه . تراجع كريم بك في شبه فزع فزلت قدمه فهوى على ظهره
 فارتطم مؤخر رأسه بحافة الطوار . ذعر الغلام فولى هاربا . ووقف المارة
 القريون ليشاهدوا الحدث الغريب وهم بين الرثاء والابتسام ولكن كريم بك
 استلقى في إغماء لا شك فيه . وهرع إليه بعض ذوى النجدة ليسعفوه .
 وارتفع من بينهم صوت هاتفا :

— يا لطف الله ... الرجل جثة هامدة !

الفهرست

صفحة	
٣	قبيل الرحيل
١٥	حلم نصف الليل
٢٧	قوس قزح
٣٩	الصمت
٥١	بيت سيء السمعة
٦٣	القهوة الخالية
٧٣	كلمة السر
٨٣	الخوف
٩٧	الرماد
١٠٧	الختام
١١٧	سوق الكانتو
١٢٧	وجها لوجه
١٣٧	الهارب من الإعدام
١٤٩	سائق القطار
١٦١	لونا بارك
١٧١	موجة حر
١٨٣	عابرو السبيل
١٩٧	يوم حافل

رقم الإيداع ٥١٦٢
الترقيم الدولي — ٣١٨ — ٣١٦ — ٩٧٧

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

.736

Bibliotheca Alexandrina



مكتبة الإسكندرية



0296857

الشمس

دار مصر للطباعة
سميد جودة السحار وشركاه